المطر في كارمينا بورانا

ممدوح رزق

قصص قصيرة

Meta

المطر في كارمينا بورانا — ممدوح رزق

"منذ كتابات ممدوح رزق الأولى نستشعر خصوصية، ونفوقاً، وقدرة متميزة، تضعه في المصاف الأولى للكتابة العربية اليوم".

د. **أمجد ريان** . أخبار الأدب.

"العالم لدى شخصيات ممدوح رزق أشبه بوهم، بل هو وهم فعلًا، أو بالأحرى، هو كابوس مخيف. هكذا يزداد لديه دائمًا الانشغال بالمكان وتفاصيله من البشر وعلاقاتهم وتكون هذه الحالة من الغياب عن الوعي من خلال الحلم أو الشرود أو التهويم أو أحلام اليقظة أو حتى التذكر المفرط وسيلة لإبعاد الزمن من التفكير في البشر وأحوالهم وعلاقاتهم، وكذلك في تلك الكراهية المطلقة التي تسود العالم".

د. **شاكر عبد الحميد** . عالم الكتاب.

"هذا الدرب الصعب الذي اختاره ممدوح رزق يثبت موهبته، وقدرته الفائقة في السرد، وكسر الحدود بين ما هو حقيقي وما هو متخيل، بين الواقع والوهم، بين ما هو حياتي وبين ما هو قرائي. إن منطق الحكي عند ممدوح رزق هو عدم التخلي عن لعبة الخداع، وهذا ما يفعله بامتياز".

د. **أشرف حسن** . تيارات التغيير في أدب الشباب / مؤتمر الأدباء الشبان الأول ٢٠١٢

"ممدوح رزق من الكتّاب القليلين الذين يثبتون أن استعمال اللغة الشعرية حتى في وصف أحداث نفسية صعبة وأحداث فيها قدر من المأساوية هو إثراء للكتابة".

د. **رضا عطية** . موقع الكتابة.

Meta

المطر في كارمينا بورانا

قصص قصيرة

ممدوح رزق

إلى الأستاذ "سيد الوكيل"

"قلت: سأذهب إلى أرض أخرى.

سأذهب إلى بحر آخر.

مدينة أخرى ستوجد أفضل من هذه.

كل محاولاتي مقضي عليها بالفشل.

وقلبي مدفون كالميت.

إلى متى سيبقى فكري حزينا؟

أينما جلت بعيني،

أينما نظرت حولي،

رأيت خرائب سوداء من حياتي..

..حيث العديد من السنين

قضيت وهدمت وبددت.

لن تجد بلدانا ولا بحور أخرى.

ستلاحقك المدينة وستهيم في الشوارع ذاتها.

وستدركك الشيخوخة في هذه الأحياء بعينها.

وفي البيوت ذاتها

..سيدب الشيب إلى رأسك.

ستصل على الدوام إلى هذه المدينة.

لا تأمل في بقاع أخرى.

ما من سفين من أجلك

وما من سبيل.

وما دمت قد خربت حياتك هنا،

في هذا الركن الصغير،

فهي خراب أينما كنت في الوجود".

قسطنطين كفافيس

خطوات

بعد موته في حادث؛ وزّعت زوجته أحذيته الكثيرة على غرباء كانوا في احتياج إليها .. لكن حينما ارتدى كل منهم حذاءً وجد قدميه تتحركان إلى أماكن لم يذهب إليها من قبل .. هناك من توجّه به حذاء الميت إلى شوارع يخطو فيها للمرة الأولى، وهناك من دخل مقهى لم يسبق أن جلس فيه أبدًا، كما أن هناك من قاده حذاء آخر إلى إحدى الحدائق التي لم يقصدها مطلقًا في الماضي .. لم يقتصر الأمر على التحرّك العفوي في مسارات جديدة، وإنما كان الوجود في هذه الأماكن مقترنًا بحدث غامض، وشعور غير معهود أيضًا؛ فأحد الذين تحرك به حذاء الميت إلى شارع ما توقف فجأة أمام بيت قديم مهجور، ووجد رأسه يرتفع كي تتطلع عيناه إلى شرفته المتهدمة لفترة طويلة، كأنه ينتظر ظهور أحد سكانه الذين ما عاد لهم وجود داخله، ثم أحس هذا الشخص بمرارة لم يفهمها مع انخفاض رأسه وعودته للمشي مغادرًا الشارع .. أحدهم أيضًا اكتشف وهو داخل المقهى الذي لم يسبق أن جلس فيه أبدًا أن أذنيه تستمعان إلى أصوات عدة كأنها تخاطبه وتضحك معه دون أن يستوعبها، كأنها تنتمي إلى أشخاص غير مرئيين لا يشاركونه الطاولة فحسب، وإنما ذكريات مجهولة أيضًا، حتى أنه عندما أراد أن يدفع ثمن كوب الشاي الذي تناوله قبل ترك المقهى؛ شعر بضرورة مبهمة أن يعطي نقودًا أكثر للقهوجي قيمة ما تناوله أولئك الذين لم يستطع رؤيتهم، وكانوا يكلمونه ويضحكون معه .. أما الذي ذهب به حذاء الميت إلى إحدى الحدائق فقد وجد نفسه يجلس فوق أريكة بجوار سياج من النباتات العالية التي تفصل الحديقة عن النهر، ثم تفاجأ بعينيه تتمعنان في امرأة جميلة تجلس وحدها فوق أريكة أخرى على الجانب المقابل له .. لم يكن يعرف هذه المرأة، ولكنه لم يقدر على إزاحة بصره عن نظرتها المهمومة، وملامحها المنكسرة، كما لم يكن بوسعه تضليل إحساسه المباغت بالرغبة الجارفة في التحدث معها، قبل أن يحسم الخوف ارتباكه الحاد، ويدفعه للوقوف والخروج من الحديقة، وهو يفكر بيقين ملتبس في أن ما فعله الآن سبق أن تكرر كثيرًا من قبل في نفس المكان ومع نفس المرأة .. لكن حينما أوشك هذا الرجل على اجتياز الشارع توقف فجأة .. لم تكن هناك سيارات تعبر أمامه بل كان الطريق خاليًا تمامًا، ومع ذلك تسمّرت قدماه، أو بالأحرى قبض الحذاء على قدميه فمنعه تمامًا من التقدم رغم رغبته في التحرّك إلى الجانب الآخر .. رأى سيارة تمرق فجأة من شارع جانبي لتخترق الطريق بسرعة طائشة ثم تختفي في لمح البصر .. شعر بقدميه تتحرران من القيد المحكم للحذاء فأصبح قادرًا على عبور الشارع.

قطع الزجاج الضئيلة

منذ أن سمع فجأة هذا الصوت الرهيب الذي يشبه ارتطام لوح زجاجي هائل سقط من السماء بأرض غاية في الصلابة، ومنذ أن تأكد أن هذا الصوت قد انبعث داخل جسده، ولم يسمعه أحد آخر؛ تحوّلت الكلمات التي ينطقها كافة إلى شظايا زجاجية متناهية الصغر .. يطلب من زوجته أن تصمت قليلًا فتتناثر قطع الزجاج الضئيلة بعدد الحروف التي كانت ستتضمنها عبارته المعتادة في هذه اللحظة .. يقرأ لطفلته قصة "سنووايت والأقزام السبعة" .. يسرد لشقيقته العجوز التي تعيش بمفردها حادثة قتل واغتصاب جديدة قرأها كي يستمتع بذهولها الخائف .. يشرح لصاحبه على المقهى لماذا يتمنى لو عاد به الزمن عشرين سنة محتفظًا بمعرفة المصير الذي انتهت إليه حياته بعد تجاوز الأربعين .. يسأل سائق التاكسي ذا الملامح الشائخة إن كان يمتلك صورًا فوتوغرافية قديمة لشوارع المدينة .. يتحدث في ندوة أدبية عن العوامل الطفولية التي أثّرت في كتابته للقصة القصيرة .. لا تتوقف الشظايا الزجاجية عن التدفق من فمه.

كان صوت الارتطام مفاجئًا، ولكنه لم يزرع صدمة .. حتى الدهشة التي رافقت بداية التدافع لقطع الزجاج الضئيلة من بين شفتيه كانت بسيطة ومؤقتة، خاصة بعدما انتبه إلى عدم الشعور بألم، أو إنهاك، أو بجرح ما قد نشأ عن هذا الانهمار المسنون، وفي المقابل لم يسبب غياب الكلمات متاعب للآخرين أكثر من احتياجهم الدائم لترك مساحة حذر صغيرة بين أجسادهم وفمه حين يتكلم .. كان الجميع يستوعب ما يود أن يقوله عبر هذه الشظايا الزجاجية، بنفس الآلية المعهودة للإدراك، كأنما ليس هناك فرق أن يتكلم بلغة أو بأخرى .. على نحو ما كان يجب أن يكون هذا مُريحًا، ولكنه للأسف لم يكن كذلك؛ فالعبء الأفظع الذي لم يكن هناك طريقة لتجنّبه هو ضرورة أن يتخلص بنفسه من قطع الزجاج الضئيلة الناجمة عن حديثه، والتي كان يرفض الجميع مساعدته في لمّها، ثم إلقائها في أكياس القمامة .. كان يتعيّن أن يفعل هذا بيديه، لأنها شظاياه وحده، وبالضرورة لزم عليه دائمًا أن يزيحها من المسافات التي تفصله عن الآخرين .. أصبح يحمل معه طوال الوقت حقيبة كبيرة تحوي فرشاة وجاروفًا وأكياسًا سوداء كأنها أدوات لمهنة يعيش منها، ورغم أنه لم يكن يتحدث كثيرًا أصلًا إلا أنه قرر تقليل لحظات كلامه، مقررًا أن ما حدث يمكن اعتباره دافعًا قويًا للوصول إلى ما كان يتمناه منذ زمن طويل أي الخرس التام.

شيء غامض يضيء في الأفق

أخذ أخي نظارتها ذات العدستين السميكتين، واحتفظت أختي بعكازها، أما أنا فعدت إلى بيتي بدفتر قديم من طفولتها، كانت قد كتبت فيه سطورًا قليلة من بداية حكاية لم تُكملها .. وضعت داخل الدفتر شريطًا ورقيًا مطويًا عدة مرات لرسم القلب الأخير الذي أجرته قبل دخولها غرفة العمليات .. لم أكن قد تمكنت من النوم بعد حينما سمعت آخر الليل صوت دقات خافتة تنبعث وراء باب حجرتي .. نهضت في الظلام نحو الخارج متتبعًا الصوت الذي يزداد وضوحه تدريجيًا .. فتحت درج المكتبة، ورأيت غلاف الدفتر القديم يرتفع ويهبط بانتظام مع الدقات المتتابعة التي أصبح صوتها واضحًا تمامًا .. فتحت الدفتر، وأخرجت الشريط الورقي ثم فردت ثنياته الصغيرة .. رأيت خطوط القلب تتحرك بين يديّ .. أعدت طوي الشريط بحذر كي لا تتوقف الخطوط ثانية، وحينما وضعته في مكانه داخل الدفتر القديم رأيت سطورًا جديدة قد أضيفت للحكاية .. أغلقت درج المكتبة على الدفتر الذي يحتوي الشريط الورقي النابض ثم عدت إلى حجرتي .. داخل الظلام؛ وضعت رأسي فوق الوسادة ثم أغمضت عينيّ وبدأت أفكر في السطور القادمة من حكاية البنت التي كانت تجلس في شرفتها، ورأت ذات يوم شيئًا غامضًا يضيء في الأفق، لم يتمكن بصرها الحاد من تبيّنه؛ فقررت أنه إذا استمر عجزها عن رؤيته، سوف تخرج من بيتها وتجري نحوه لتعرف ماذا يكون.

شباب رواية

لم ينظر إمام بلتاجي حسنين في وجه طالب النقد الأدبي بعيني أستاذ دار العلوم الذي صار إليه بعد سنوات طويلة من مغادرة حجرته في حي القلعة .. كانت نفس النظرة القديمة التي اجتاحتها ملامح شفاعات عندما احتجزت قبضته القوية يدها المرفوعة بالشبشب فوق رأسه، وتلاصق جسديهما للمرة الأولى .. قبل أن يدفع ليونتها الباطشة عن عذريته، كطفل يطفئ على الفور نارًا أشعلها دون قصد: الرجاء المرتعش في عينيها المتجبرتين وهما تلتهمان وجهه الغافل .. الانفراجة المتوعّدة لشفتيها الباذختين أمام بصره المهزوم .. الأنفاس المستعرة التي تدوي من صدرها المهجور، ويدها تتراخى داخل صلابة كفه ليبزغ البريق الفردوسي لكتفيها العاريتين ..قرأ طالب النقد الأدبي تأويله لـ "رواية" ما، ولكن على نحو أيقظ تاريخ أستاذ دار العلوم مع "الرواية" ذاتها .. التاريخ الذي بدأ بسلبة فارغة تجرجرها أم باكية على فراق الجاموسة التي باعتها بخسًا كي تعود لابنها المغادر إلى القاهرة بمصروفات العيش .. طالب العلم، العاقل، الذي لا يُخشى عليه، وهو يبدأ رحلته إلى المستقبل المرموق سالكًا طريق الرشاد، ومتجنّبًا مواطن الذلل .. يتذكر إمام بلتاجي حسنين وصايا وأدعية الأنقياء التي ودّعت طهارته القروية قبل أن يسلمه القطار للزحام والضجيج والبنايات الشاهقة .. قبل أن يقوده الحنطور إلى الرواية المتربصة كي يكتشف شبابها المخبوء .. ينظر أستاذ دار العلوم في وجه طالب النقد الأدبي ويفكر في أنه منذ تحركت خطواته خارج السرجة للمرة الأخيرة لم يعد يطرق الأبواب الخاطئة، أو يتردد في طرق الأبواب الصحيحة، أو يفرد منديله الكبير على الأرائك قبل جلوسه، أو يضع إصبعه في أكواب العصير ليتأكد من غياب الخدعة، أو يفتح العلب المغلقة بخوف من المفاجآت، أو تنطلي على أذنيه الأصوات المزيفة، كما أن ذراعه توقفت عن خيانته .. يفكر في حياته المسالمة مع سلوى؛ الزوجة الرومانسية، ومعلمة الموسيقى التي تربي الأطفال داخل الإيمان المنغّم بالعقيدة والوطن والقيم الإنسانية الأصيلة، مثلما يفعل هو تمامًا بالكتّاب والقراء وطلاب النقد الأدبي .. حبيبة الطفولة، التي توّج معها ذكريات الغيطان والسواقي وشجر الجميز والتوت بالنهاية المنطقية السعيدة .. يفكر في أن كل شيء ينتمي لحياته الآن يؤكد خروجه سالمًا من الجحيم الطارئ .. كل شيء يثبت نجاة الجذور من مغامرة "النجاسة" المؤقتة التي حاولت اقتلاعها في الماضي: العفوية الريفية المتسامحة أمام الابتسامة الشبقية الممتنة للرواية حين عرفت أنه أقام عند غلافها الموصد .. الحياء المرتبك أمام التلهف الشهواني ليديها المتحججتين بتنظيف فانلته المتسخة .. الوضوء وصلاة الفجر في المسجد وتلاوة ألفية بن مالك على لمبة الجاز أمام التلصص الجائع لعيني الرواية المفتونتين على البكارة الذكورية المكشوفة لجسده الممشوق، المضاء بالعرق، ذي الشعر الكثيف في الصدر، عبر لوح زجاجي، كان بفضل الغبار السميك المتراكم امتدادًا للجدار .. الحشمة المرتعشة أمام الصوت الخبيث لبكائها، الممتزج بتهيئة دروبها الوحشية لعبور قضيبه المنتظر نحو كوة الخلاص .. الاضطراب المتوسل أمام النعومة الفخمة لأشواقها العارية التي لم ينجح في طمسها .. الهروب العابر كأنه مسار دائري لذكر الحمام الذي فر من حصار الشباك مع صوت الآذان أمام تسلل الرواية نحو ارتجاف جناحيه المنكمشين في الظلام بعد عودته الحتمية .. الخوف المتآكل أمام سخريتها المتوارية في خطابها الهامس عن الشيطان والحب والطهارة والبراءة والحرمان والعطف والحنان والقلوب النظيفة وعيون الناس والكلمات الحلوة والكراهية وانعدام البخت وهي تقبّل جبينه ويده قبل أن

تضم رأسه المتطاير لثدييها الأموميين، ويحترق العالم بالقبلة الأولى غير المصدقة في عينيها قبل إغماضهما.

ينظر إمام بلتاجي حسنين في وجه طالب النقد الأدبي ويفكر في أن القدر أنقذ مصيره من أن يكون "حسبو" آخر .. القارئ الملعون، الذي تبدّل قلبه بعصفورة مذبوحة، المشرّد بين توبة كالموت، ومعنى مُرجأ دائمًا .. لكن أستاذ دار العلوم يتساءل أيضًا في نفسه: هل قتل حسبو شفاعات حقًا بعدما بلغ ذروة اليأس من امتلاكها؟ .. هل تخلص القارئ الممسوس من الرواية بعدما أهلكه الغياب التام لحقيقة شبابها؟ .. هل ما سحقته الطاحونة هو جسد تلك السوقية، "الكبيرة واللذيذة"، أم اليقين الهزلي لكل "بغل" عن العلامات المراوغة لجسدها؟ .. يفكر إمام بلتاجي حسنين في أن قتل شفاعات لم يكن سوى حلم التخلص منها .. هكذا يخبره تأويل طالب النقد الأدبي لرواية ما .. أمنية الانعتاق من لطمات الكرباج المتواصلة في يدها حيث المدلول لا يتوقف عن التحوّل إلى دال في لعبة تشتيت أبدية.

غضب نوستالجي ذلك الذي كان في عيني أستاذ دار العلوم .. يتأكد الآن أنه منذ مغادرة حجرته في حي القلعة لم يفعل أكثر من مطاردة شفاعات في جميع الروايات .. محاولة اعتقالها داخل الحلم الذي تخلص فيه حسبو من شرها .. الكفاح المستمر لتحويل كاتب الرواية وقارئها إلى حسبو جديد كي لا يفطن أحد إلى رغبة إمام بلتاجي حسنين في معاودة الامتثال لها .. يتأكد الآن أن شفاعات هي التي تطارده .. يعلم أنها الزمن وخارجه .. ظلام الليالي البعيدة .. الشبح الذي أراد الاعتناء به في غموض الغابات والبراري ليحميه من تصديق الغايات المتعالية، والرضوخ للأصول المترفعة للإدراك .. من التحوّل إلى "بغل حقيقي" يدور في سياقات المُثل المعرفية التي تكتسب مزيدًا من القداسة حين تُنطق باللهجة الريفية .. العلم الشرعي .. النقد الملتزم .. الشفاء سريعًا من اللعنة الإلهية قبل أن ينتهي كـ "حسبو" الذي لم يدمره التعب أو التمنّع .. كان حسبو يعرف أن مضاجعة الرواية الوحشية تحصّنه من المرض والموت .. أنه كلما حفر في جسدها تعمّق اكتشافه لنفسه كسيزيف مستمتع بشقائه .. كبروميثيوس متلذذ بإطفاء المعرفة كي يضيء الإبهام الذي يحرقه .. كنرسيس يتبول سعيدًا على انعكاس صورته في الماء .. حسبو أراد أن تكون الرواية الوحشية من أجله وحده، حتى في أقصى حالات تعذرها على خياله .. أن يكون المستأثر بنشوة الهلاك الناجمة عن انفلاتها الدائم .. لكن حينما وصل به فقدان الأمل إلى الحد الأخير؛ قرر القارئ الملعون أن ينتحر بالوهم المروّض لقتلها .. أن يطحن قسوتها تحت السلطة المطلقة للحقيقة والمعنى .. أن يتخلص من ثمالة الشك في البراهين، واقتفاء الحضور المتصدّع للأثر بالاستسلام القانط لهيمنة اللغة التي طالما كانت اللعبة الهازئة لشفاعات.

ينظر إمام بلتاجي حسنين أستاذ دار العلوم في وجه طالب النقد الأدبي كمن يتأمل الملك الصبي النائم في طفولية كل منا، والذي أشار إليه الطالب نفسه في تأويله لرواية ما مقتبسًا كلمات جوليا كريستيفا عن النظرية الجنسانية لفرويد .. الذي لن يحلم بقتل شفاعات، وإنما في تدمير نفسه داخل اللعنة إلى آخرها، إلى نهاية الفضول الذي لن يشبع، والتجاوز المحطم للذات حيث يكمن خلوده في قلب هذا الاختيار المتعمّد للفناء .. كان إمام بلتاجي حسنين ينظر إلى الصورة المنتهكة لانتصابه الشخصي داخل كوة الخلاص التي طُرد منها.

لأن عينيه مغلقتان طوال الوقت

في الطريق إلى البحر؛ رجل وامرأة يجلسان متقابلين داخل قطار .. بينهما طفلة تتطلع عبر النافذة إلى الحقول الخضراء .. المرأة تنظر إلى أرض القطار كأن بصرها يتأمل في الداخل مقبرة طيور محترقة .. الرجل يضع سماعتين في أذنيه وينصت إلى أغنيات "حميد الشاعري" القديمة .. لا ترى المرأة أو الطفلة ابتسامته المتحسّرة التي تستعيد الزمن حينما كانت تلك الأغنيات تطمئنه بأن هذه اللحظة لن تحدث، وفي الوقت نفسه كانت تتنبأ بها.

أمام البحر .. طلبت الطفلة أن ترى صيادًا وهو يصطاد السمك .. نظرت المرأة إلى الرجل ثم التفتا معًا إلى الصياد الذي يمسك بصنارته ويجلس بعيدًا عند الشاطئ .. ذهبوا في اتجاهه، وبالقرب منه جلسوا يراقبون الأسماك وهي تخرج من الماء عالقة في طرف الخيط الواحدة تلو الأخرى .. لم يتمكن أي من الرجل أو المرأة أن يجيب على الطفلة حينما سألتهما كيف يستطيع ذلك الجالس عند الشاطئ أن يصطاد الأسماك بهذه المهارة رغم أن عينيه مغلقتان طوال الوقت.

هل تبحث عن أحد؟

لا يستطيع شيء أن يُبطل اللعنة .. يظل هذا الرجل يدور كل يوم بين مقاهي المدينة دون أن يجلس في أي منها .. يخطو داخل المقهى ثم يقف في منتصفه ويحدّق في وجوه الجالسين للحظات قبل أن يغادره نحو مقهى آخر ليفعل الأمر ذاته .. أحيانًا يكتفي بالوقوف خارج المقهى والتطلّع إلى الملامح في الداخل عبر الشبابيك المفتوحة، أو الألواح الزجاجية التي تغلق النوافذ .. هو مشهور بفضل ذلك .. يعرفه الناس في المدينة بأنه الرجل الذي يتنقل بين المقاهي ولا يجلس فيها .. يناديه أحد الجالسين فجأة حينما يراه كالمعتاد يدخل المقهى ويتأمل الوجوه .. يسمع الرجل هذه الدعوة الصادرة من طاولة في أحد الأركان فيلتفت بعفوية مسالمة إلى صاحبها المبتسم ثم يتوجّه نحو طاولته .. ينهض صاحب النداء ليصافحه، وحينما تصبح اليد في اليد يسأله محاولًا وضع حد للفضول الذي ينتشر كسُحب الدخان في المقاهي إن كان يبحث عن أحد .. لا يجيبه الرجل، فقط يظل يحدّق في عينيه بوجه غائم ثم يسحب يده، وبنفس الخطوات الهادئة التي يدخل بها جميع المقاهي يتحرّك إلى الخارج ويختفى .. في الليلة ذاتها يموت الرجل الذي قام بالنداء على متجوّل المقاهي.

لا يستطيع شيء أن يُبطل اللعنة .. لابد أن يستمر المتجوّل في دخول المقاهي، أو الوقوف خارجها، والتطلع إلى ملامح الجالسين ثم الاختفاء .. لابد أن يقوم أحد الجالسين بالنداء عليه مبتسمًا، ومصافحته، وسؤاله إن كان يبحث عن أحد؛ فيُمعن الرجل النظر في عينيه ثم يسحب يده ويخرج بخطوات هادئة ليختفي قبل أن يموت صاحب النداء في نفس الليلة على نحو مباغت مثل سابقيه، كأنما يمتثل لضرورة لا تخضع لأي منطق أو حذر.

لماذا لا يستطيع شيء أن يُبطل اللعنة؟ .. لأن المقهى هو بيت في الحقيقة .. حجرة داخل بيت تحديدًا .. جميع المقاهي هي حجرات مغلقة داخل البيوت .. أما الجالس في المقهى فهو شخص وحيد، ممدد على سريره ويحدّق صامتًا في السقف، ويفكر في أولئك الذين يعرفهم داخل بيوت أخرى، ويقابلهم أحيانًا أو بصورة دائمة، ويشاركهم التحدث والحزن والضحك والغضب والصمت .. لأن الرجل الذي يدور بين المقاهي هو الشخص ذاته الممدد على سريره بينما يراقب نفسه عبر مسافات مختلفة محاولًا العثور في متاهاته الداخلية المدفونة على كائن غامض، ظل يفقده تدريجيًا مع تعاقب سنوات التحدث والحزن والضحك والغضب والصمت مع الآخرين .. لا يستطيع شيء أن يُبطل اللعنة لأن هذا الشخص يتحتم عليه أن يحصل على موتٍ ما، ربما لا ينتبه إليه حينما يسأل نفسه فجأة بشكل قهري: هل تبحث عن أحد؟.

تفسير العتمة

ظل طوال حياته ينتظر هذه اللحظة .. لكن أية حياة؟ .. إنه لم يعرف شيئًا عن وجوده في العالم سوى بيع "غزل البنات" .. لا يتذكر ما الذي سبق بداية تجواله اليومي في الشوارع منذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل .. لا يدرك هوية البشر الذين يعيش بينهم، أو طبيعة الذين يخطو بين أجسادهم طوال الوقت حاملًا العصا الخشبية الطويلة المستندة على كتفه، التي تلتف حولها الأكياس الصغيرة، والمزمار الذي يردد به النغمة الندائية المميزة، ولا التفاصيل والأشياء التي تتراكم وتتغير في عينيه، أو الأحداث التي تتكرر وتتبدل من حوله .. كان بائعًا لـ "غزل البنات" فحسب؛ ولهذا لم تكن مجرد مهنة بل كينونة مغلقة، ليس للحياة امتداد خارجها .. أما اللحظة التي كان ينتظرها فهي لم تكن رجاءً واضحًا، محفورًا في ذهنه؛ بل كانت هديرًا .. مجرد صوت ثابت، لا ينقطع على الإطلاق، لا تعلو نبرته ولا تخفت، أشبه بمزيج متجانس مما يصدره الموج ومحرّك قارب صغير .. اللحظة إذن لم تكن مستوعبة بالنسبة له، ولكنه كان دائمًا يشعر بغموضها في عقله، وربما كانت هي السر المبهم الذي جعله لم يتكلم أبدًا .. هكذا، وبفضل هذا التواطؤ المحكم بين الصمت والغفلة؛ لم يكن غريبًا أن يُعرّف بالجنون، أو بتسامح أزيد؛ بغرابة الأطوار.

كان يمكن أن يكون انتشال مجموعة من الناس لجثة طفل في الخامسة من النهر حدثًا عاديًا لولا أن بائع "غزل البنات" كان يقترب من المشهد .. اقترب حتى أصبح بجوار الجثة الراقدة على الأرض تمامًا .. تأمل ملامح الطفل الساكنة، جسده الصغير المنتفخ، ملابسه وحذاءه، ثم نظر إلى الوجوه التي تتزاحم .. أنصت قليلًا إلى ضجيجهم .. راقب حركاتهم وانفعالاتهم قبل أن يرفع العصا الخشبية التي تحمل أكياس "غزل البنات" من فوق كتفه، ويغرز طرفها المعدني الحاد في صدر الطفل .. كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها طوال حياته .. عرف ذلك وهو يغرز ما تحوّل إلى نصل مباغت في صدر الطفل .. تأكد من ذلك وهو ينفجر في الضحك بعدها .. الضحك القوي، المتلاحق، الذي لم يهمد رغم كل ما أصابه من الآخرين نتيجة ما حدث .. كأن هذه الضحكات هي البديل المختزن لجميع الكلمات التي لم ينطق بها مطلقًا.

في مقابل الاختفاء التام الملغز والأبدي لبائع "غزل البنات" بعد هذا اليوم؛ عاش الطفل الذي أُنتشلت جثته الغارقة، وأُضيف إليها ثقب صغير في الصدر .. بدأ حياة أخرى منفصلة كليًا عن ذاكرة هذه الجثة المثقوبة التي تم دفنها .. أصبحت له عائلة وجيران وزملاء دراسة وأصدقاء وحبيبة وزوجة وابنة صغيرة .. والآن؛ يفترض به أن يُكمل عامه الثاني والأربعين بعد ثلاثة شهور، دون أن يعرف شيئًا عن الطفل التي أُلقي قديمًا في الماء؛ ما الذي كانت عليه حياته قبل أن يغرق، ولماذا حدث له ذلك .. دون أن يعرف شيئًا عن بائع "غزل البنات"، ولا عصاته الخشبية التي غرز طرفها المعدني الحاد في صدر الطفل الميت، ولا ضحكاته القوية التي كانت علامة اختفائه .. كل ما يدركه أن صوت المزمار الذي يُطلقه باعة "غزل البنات" في الشوارع هو الوحيد الذي لا يؤلم أعصابه المحطمة من بين الأصوات العالية كافة التي تحاصره في جميع الأماكن، ويتمنى لو بوسعه أن ينشيء جحيمًا خاصًا لكل من يصدرها .. يدرك أيضًا أنه كلما تمدد فوق أريكة بجوار شباك حجرته المفتوح كي يدخن سيجارته، وينظر إلى السماء ثم يضحك بعد مرور الوقت حين يتذكر أنه سيموت يومًا ما كأنه لم يفكر أبدًا في أي شيء؛ أن هذه

الضحكات لا تخصه بالكامل .. كأن ثمة مجهولًا يشاركه هذا الضحك، فضلًا عن شعوره الدائم بأن هذه الضحكات لا تنبعث إلا من نقطة ضئيلة، غامضة تمامًا داخل صدره.

أسوأ طريقة لإنهاء الحياة

لماذا لا أدخل هذا الشارع الجانبي الآن؟ .. أفكر في أن ثلاثين عامًا قد مرت دون أن تتحرك خطواتي في هذا الاتجاه .. هل لا يزال البيت القديم ذو الفناء الصغير غير المسقوف، المغلق ببوابة حديدية خضراء كما هو؟ .. نعم، لا يزال كما هو .. أقف لثوان قليلة داخل المساحة الترابية بين بوابة البيت القديم والجامع المجاور له ثم أبتعد ثانية .. كأن الاستمرار في الوقوف هناك سيكون له ثمن أكثر فداحة مما يمكنني دفعه .. حسنًا .. لقد رأيت ما جئت من أجله .. علبة ثقاب فارغة موضوع الرهان مع صاحبي: أي منا يستطيع أن يركلها فوق قدميه أكبر عدد من المرات دون أن تسقط؟ .. أعد محاولاتي الناجحة تحت البصر المترقب لصاحبي الذي ينتظر خطأي: واحد .. اثنان .. ثلاث ... فجأة يظهر أبي عند العتبة الداخلية للجامع .. لهذه الدرجة كان صوتي عاليًا أثناء العد فوصل إليه وهو جالس في منتصف الجامع قبل رفع آذان الجمعة .. لهذه الدرجة يستطيع أبي تمييز صوتي .. يقف عند العتبة وينظر لي .. تسقط علبة الثقاب الفارغة على الأرض، ولا ينتبه صاحبي إلى خطأي عندما يري هاتين العينين المحتقنتين وهما تجذباني كالمعتاد من قلبي المرتجف نحو باب الجامع في صمت .. أخلع حذائي وأعبر العتبة ثم أتبع جسده القصير السمين الغاضب نحو العامود الذي حدده كمكان ثابت لصلاته .. يصافحني ونحن راكعين بعد التسليم بملامح متجهمة، مُصوّبًا اللوم القاتل في عينيّ .. أخرج من الجامع وراءه بروحٍ تنتفض مع تخيّل العقاب المنزلي المألوف الذي تم التمهيد له أثناء الصلاة .. لم أكن أعرف أن الأمر قد انتهى بشكل غير متوقع عند هذا الحد .. دون صفعات .. أنظر إلى الأرض فأُدرك أن صاحبي قد أخذ علبة الثقاب الفارغة قبل أن يرحل .. ربما كان الاستمرار في الوقوف أكثر من تلك الثواني سيجعل ما رأيته يتلاشى .. ربما سيتمادى المشهد في الوضوح فيبتلعني نحو الموت .. أبتعد بيقين أنه لا أحد من العابرين ينظر إلى وجهي الآن .. لو التفت أحدهم إليّ في هذه اللحظة فلن يتمكن من إبعاد بصره عن دموعي التي لم أستطع كتمانها .. ربما أريدكم أن تروا هذه الدموع فتعرفوا ما أنا فيه، وسيكون ذلك خطوة أولى لإنقاذ العالم .. كانت هناك حياة تتجهز .. كان كل شيء يؤكد أن هذه الحياة لابد أن توجد .. لكنني أبتعد الآن بخطوات سريعة عن هذا الجزء الضئيل من الجثة الحقيرة المختفية لذلك الوعد البديهي .. لا أصدق أن قلبي تحمّل ثلاثين عامًا من هذا التعريف للماضي .. هذه الدموع ليست ناجمة عن الوعد البديهي الذي أصبح منذ زمن طويل جثة حقيرة مختفية فحسب، وإنما عن التأكد أيضًا بأن ثلاثين عامًا لو تبددت الآن، فلن يكون هناك سبيل لجعلها تحدث على نحو مضاد .. ندم يسير في الشوارع فرحًا بالبكاء، وخائفًا منه، وراجيًا ثغرة ما لإيلامه .. ما الذي كان يلزم أن نفعله كي لا نصل هذه الحسرة؟ .. هل كان هناك ما يمكن أن نقوم به حقًا؟ .. كل ما حولي من بشر وبيوت يذكرني بأن جثة الوعد مختفية في دمائي، وأنني أحتضر بهذا السم المضمون ببطء خاطف.

أنظر إلى العابرين فأجد كل واحد منهم قد أصبح بيتًا متحركًا على وشك السقوط .. بيت له شعر رأس كنباتات سوداء وبيضاء فوق أسطح تعلو جسدًا عاريًا تتناثر فيه النوافذ المتآكلة، المغلقة على فراغات مهجورة .. أنظر إلى البيوت فأجد كل بيت قد أصبح هيكلًا عظميًا مرتعشًا لم يتزحزح من مكانه منذ دهور .. هيكل عظمي كبير ممتلئ بالثقوب السوداء الواسعة كأنها فجوات عملاقة عبرت منها طلقات الغيب في مجزرة تنتمي إلى زمن سحيق، لم يشاهدها أحد .. تنظر البيوت المتحركة لملامحي وهي تعبر حولي، بينما لا أتوقف عن التطلع إلى الهياكل

العظمية المتراصة على جانبي كل طريق .. أسمع صرخات عاتية من جميع الاتجاهات، لكنني أفسرها كإيقاعات لحفلات عُرس مخيفة.

فتحت كاميرا الهاتف قبل تثبيته فوق المكتب باتجاه زاوية التصوير الصحيحة .. جلست أمام اللابتوب وبدأت في كتابة السطور الأولى من روايتي الجديدة التي تبدأ بلحظة سقوطي من فوق كرسي الاستوديو الذي ذهبت إليه في عُمر الثانية مع شقيقتي الكبرى لالتقاط صورة سيتم إرسالها لأبي الذي سافر إلى السعودية .. هذه هي المرة الأولى، وأعرف جيدًا الأسباب التي لم تجعل من تصوير نفسي أثناء الكتابة فكرة مغرية، وأعرف أيضًا لماذا قررت أن أقوم بذلك مع هذه الرواية تحديدًا .. أكتب كلمة وراء الكلمة، سطرًا بعد الآخر كأنه لا توجد كاميرا؛ فقد استيقظت صباح اليوم بذهن أشبه بالكتاب المفتوح، يمكن لأصابعي أن تقرأ في صفحاته بوضوح تام تفاصيل بداية سردية طويلة تتمتع بترتيب منضبط، لا يتغافل حتى عن لحظات الصمت القصيرة اللازمة للتفكير في قرارات معينة .. أغلق صفحة الكتابة ثم أطفئ اللابتوب منتشيًا بأورجازم مثالي أنهى اليوم الأول من الكتابة .. أفتح الفيديو على الهاتف .. كل شيء في مكانه كما حددته زاوية التصوير الصحيحة: لوحات القاهرة في القرن التاسع عشر .. القشور البيضاء الصغيرة الملتصقة بالحائط هي بقايا حديقة ورقية كبيرة تم انتزاعها منذ سنوات .. المكتبة .. التليفزيون المغلق .. أصيص النبات البلاستيكي .. المكتب الذي يعلوه اللابتوب، وعلبة أقلام ملصق على جوانبها الأربعة صور من فيلم "كونغ فو باندا" .. الكنبة الخضراء وراء المكتب وفوقها ـ حيث كنت أجلس تمامًا ـ كوخ صغير، في الضوء الأزرق الناعم لآخر النهار الشتائي، يستند إلى حائط من الرصاصي الفاتح، جدرانه الخشبية القديمة لونها رمادي شديد الدكنة، كلون بابه المغلق الذي يتلاحق ارتفاعه وهبوطه كأنه صدر الكوخ الذي يتنفس بمشقة بالغة، بينما تنعكس على الجدران الرمادية من الخارج ظلال النار المشتعلة في داخله .. مع البرودة الصامتة تنعكس هذه الحركة الثابتة للظلال بدورها فوق مساحة العشب الضئيلة الباهتة، المحيطة بالكوخ .. فوق الباب نافذتان زجاجيتان، معتمتان بشكل تام، متجاورتان بالضبط مثلما توجد العين بجوار الأخرى في الوجه، ويكسوهما غبار متجمّد.

أعرف أن الأمر لم يعد مقبولًا .. أعرف أن حالتي قد وصلت إلى درجة من الخطورة لم تعد تسمح بالتمادي في الحياة دون وضع حد حاسم لها .. كل الذين يحاصرونني، ويمرون من خلالي يدركون هذه الحقيقة جيدًا، ولكن بوعي مناقض؛ إذ أنهم ـ بالطبع ـ لا يفكرون في هذه الحالة كمأساة مرعبة بل كهدية مجانية ثمينة، يمنحها العالم إلى كوابيسهم كلما قررت الخطو خارج هذا الباب المغلق .. أربعون عامًا ولم تتوقف مغادرة البيت عن أن تكون موعدًا جديدًا مع المهزلة القديمة .. أرتدي ملابسي وأمشّط شعري ثم أنظر في عينيّ داخل المرآة كأنني أحصل من شخص آخر على تأكيد أخير بأنه لن يغدر ثانية بالعهد الذي لم يتوقف عن خيانته طوال الماضي .. نعم .. يتم الأمر هكذا كل مرة بنفس الدقة على مدار العمر، كأنه خطوة أولى، فاقدة الذاكرة، تتكرر ذاتيًا، ولا يمكن تعطيلها مثل تعاقب الليل والنهار .. أغلق الباب، وأنزل السلالم، وأسير في الشارع كشبح ماكر قادم من بداية العالم، وعلى وشك أن يعقد صفقة رابحة مع نهايته .. لكن ذلك الشخص الذي اضطررت لإشاحة عينيّ عن ضحكته الباكية في المرآة سوف يخترق جلدي من الداخل ليطمس الملامح التي كنت أمتلكها أثناء بقائي وحدي في البيت، ويتحوّل إلى قناع كامل لجسدي بمجرد مصافحتي للغرباء .. هكذا يتم استئناف العرض بشوق جارف .. كأن

هذا الشخص ليس له دورًا في الحياة أكثر من تربية الأحلام المازوخية مستترًا في ظلام العزلة، انتظارًا لموعد تحقيقها عند الخروج من بين هذه الحوائط الصامتة .. الثرثرة التي تُرد إلى أعصابي متعة مألوفة من اللطمات الحارقة لسياط الآخرين .. الدعابات التي يعيدها المصفوفون حولي صدوعًا وفجوات تملؤها النشوة إلى روحي .. السكوت المتوسّل الذي يتلذذ بمضغ النظرات والابتسامات لتوهانه بنهمٍ منطقي .. لكن هذا الشخص بالتأكيد يفعل شيئًا آخر .. هو يراقبني بينما أحاول تجميع الحطام الذي أعود به إلى هنا .. الحطام الذي يستجيب لما أظن أنه ترميم مؤقت بينما يتواصل تفتته بإصرار لن ينتهي إلا حينما يتحوّل إلى فراغ.

جميعهم كانوا يمتلكون نفس النظرة الثابتة .. كل الذين كانوا يشاركونك هذا البيت ثم وزعهم الأمل تباعًا على قبورهم .. نظرة المجبر على الاستمرار في أداء استعراض فاضح للمآسي المرعبة .. لا يمكنك نسيان هذه النظرة لأنها نظرتك الثابتة أيضًا .. تتأملها داخل المرآة بينما تحاول الحصول من شخص آخر على تأكيد أخير بأنه لن يغدر ثانية بالعهد الذي لم يتوقف عن خيانته طوال الماضي .. النظرة التي تراقب فيها سقوطك الشخصي من عتمة العائلة التي سقط منها الجميع .. لم يكن أي منهم يريد مثلك أن يخطو خارج هذا الباب المغلق، ولكن ذلك كان محتومًا على قدميه .. كان كل منهم يتمنى مثلك لو تمكن ـ على الأقل ـ من التنقل بعزلته من جحيم جماعي إلى آخر لكنه لم يقدر .. كان ينبغي أن تكون هذه النظرة هي العلامة النفيسة التي تكشف لك اللعنة فتجاهد للتحرر منها .. كان يجب أن تكون السر الذي تغتنمه لإنقاذك .. لكن منذ متى يمكن لإدراك هوية الموت أن يكون مفتاحًا لتفاديه؟ .. ربما الوصف الأكثر مثالية للواقع أن التعرّف على وجه القاتل هو أكثر ما يُسمّر قدميك أمامه .. أن استيعاب الطبيعة التي يكمن بها في داخلك هو أكثر ما يضمن لك أن تعيش وحدك العذاب السابق لكل دمية مذعورة كانت تشاركك هذا البيت.

ربما الأمر أسوأ مما أعتقد .. ربما تصدر عني كلمات وانفعالات أكثر مهانة مما أنتبه إليها .. ربما هناك معرفة سوداء بالنسبة لي، وردية في أدمغة الآخرين يحتفظون بها، يتبادلونها على المقاهي وفي المكالمات الهاتفية، وعبر محادثات فيسبوك، يرجعون بها إلى بيوتهم ويوزعونها على أفراد أسرهم، ويغلقون عيونهم عليها عند النوم ويحلمون بصورها، ويستيقظون في الصباحات التالية بسعادة ممتنة لوجودها في حيواتهم .. ربما تنتشر هذه المعرفة بواسطة الذين يشاهدونني نحو بقية الناس .. كل سكان المدينة ـ على الأقل ـ حينما يمرون بالصدفة أمام هذا البيت لابد أنهم يتذكرونني بشكل عفوي تمامًا .. ينظرون لأعلى حيث شرفة الطابق السادس، ويشعرون بالضيق لأنني لست واقفًا هناك في هذه اللحظة، دون أن يفارقهم الشعور بالحسد نحو الذين يسكنون في العمارات المحيطة ببيتي .. يبطئون من خطواتهم عسى أن أظهر فجأة ثم ينصرفون بحسرة مؤقتة .. أعتقد أنني يجب أن أكون مستعدًا بعد الآن لكل هذا .. يمكنني أن أعلن في صفحتي على فيسبوك مثلا أنني سأقف كل يوم في الخامسة عصرًا داخل هذه الشرفة .. وبما أنني في الطابق الأخير فسوف أرقص حينئذ كما يرقص الجميع في الأفلام والمسلسلات والأفراح الشعبية، ودون أي موسيقى أو إيقاع، متطلعًا لأعلى حيث لا يوجد ما يمكنني النظر إليه .. سيتساقط الجلد عن جسدي، وسيكون غزيرًا كمطر لا يمكن تصديقه، وسيكفي كل المتجمعين تحت الشرفة، الذين سيلتهمونه باستمتاع عظيم .. سأتحوّل بعد دقائق إلى هواء معلقًا عليه ملابسي، ويواصل الرقص، متطلعًا لأعلى، ولا ينظر لشيء .. لكن هذا لن يستمر طويلًا؛

فالهواء الذي سأصير إليه، وبمجرد العودة إلى الداخل وإغلاق الشرفة، سيكسوه جلد جديد، لينتظر سقوطه غدًا في الخامسة عصرًا داخل أفواه الجائعين، الذين لم يتوقفوا عن الرقص في خصيتيّ قبل عبورهم إلى ما أسفل الدنيا.

هل تعرفون أسوأ طريقة لإنهاء الحياة؟ .. أن تتصرف كما لو أنك موجة واهنة ممسوسة، لا تكف عن محاولة طمس آثار جريمة لا تُمحى، وقعت على رمال شاطئ ما، بينما السائرين بمحاذاة البحر، لا يدركون أن ثمة أحدًا قد قُتل في الأصل.

الأسماك الميتة

كان في الحوض سمكات كثيرة، لا أتذكر عددها بدقة، وكانت تموت بوتيرة متلاحقة .. لم يكن الفرق بين موت سمكة وأخرى يتجاوز أيامًا قليلة .. أحيانًا ثلاثة، وأحيانًا خمسة، وأحيانًا أسبوع كامل في أفضل الأحوال .. كان الأمر محزنًا بالتأكيد؛ فعلى الرغم من بذلنا للجهود الممكنة من أجل رعاية هذه الأسماك والحفاظ عليها، ودون تقصير في الالتزام بالتعليمات والنصائح كافة، إلا أننا ظللنا عاجزين عن إيقاف الموت داخل ذلك الصندوق الزجاجي .. لكن الحزن رغم قوته البديهية لم يمنعنا من اللعب بهذا الموت .. كنا نتراهن على أي سمكة سيأتي الدور على خروجها كجثة ضئيلة ملونة من الحوض كي تُدفن داخل الأصيص الذي أصبح مقبرة طينية مخصصة لذلك فوق سور البلكونة .. كان الدفن دليلًا متوقعًا على احترامنا لهذه الكائنات الصغيرة، وبالطبع على شعورنا بالأسى جرّاء فقدانهم؛ إذ لم نكن من نوعية البشر الذين يلقون بأسماكهم الميتة في بالوعة المرحاض أو سلة القمامة .. كانت اللعبة مسلية حقًا نظرًا لصعوبتها البالغة؛ فالسمكة التي على وشك الموت لا تبدو عليها أية أعراض مرضية بل على العكس تظهر بصورة طبيعية ونشطة للغاية إلى أن تصيبها فجأة علامات الاحتضار المتسارعة قبل أن ترقد هامدة تمامًا في قاع الحوض، وكان هذا يضاعف استفزازنا، ويعزز متعتنا .. في النهاية تبقت سمكة واحدة .. سمكة واحدة ظلت تعوم وحدها في الحوض وتنظر إلينا .. تنظر إلينا كأنها تعرف .. كان في عينيها المحدقتين ما هو أكثر من توسل لأن نفعل شيئًا استثنائيًا مبهمًا لا يخرجها من الماء ويذهب بها إلى أصيص الطين .. كنا نظن أن اللعبة قد انتهت، ولكننا أدركنا أن ثمة ختامًا آخر لها .. أصبح كل منا يتسلل بعيدًا عن الآخرين كي يقف أمام السمكة ويتأملها وحده .. ذلك الاختلاس الفردي لمراقبة لحظات ما قبل الهلاك كان الجزء الأخير من اللعبة .. بعد موت السمكة ودفنها كان من المنطقي أن نقرر بشكل حاسم عدم التفكير في تربية الأسماك مرة أخرى .. لا شك أنه من المؤلم أن تتمسك طفلتي الحزينة ـ رغم استمرار نفينا القاطع ـ بتصديق احتمال أن ينبت من طين الأصيص زرع تثمر غصونه الأسماك الميتة، بنفس ألوانها، وقد استردت الحياة مرة أخرى، الأمر الذي يستوجب حينئذ انتزاعها فورًا لإعادتها إلى الحوض المهجور .. ربما الأكثر ألمًا أنني وزوجتي منذ موت السمكة الأخيرة نحرص على سقي الطين كل يوم.

الشخص الذي ينظر إليك

بدءًا من الغد أريدك أن تستمع إلى الموسيقى منذ الصباح الباكر .. إن لم تكن موسيقى ناعمة فاستمع إلى موسيقى الجاز، وإن لم يكن من ذاكرة اللابتوب فمن إحدى محطات الإنترنت ولتكن Jazz Radio أو Jazz 24 أو .. 1.FM الموسيقى الكلاسيكية ستكون في نهاية الأسبوع، وسيشتمل الوقت المخصص لها على تنويعات مشبعة .. أريدك أن تتناول إفطارك فوق هذا العشب، بين هذه الزهور، وأمام هذا البحر .. بعد أن تنتهي طفلتك من اللعب مع الطيور والفراشات والغيوم؛ أريدك أن تجلس معها، وبرفقة قطتكما الصغيرة تحت هذه الشجرة كي تملأ بالونات الحوار للقصة المصورة التي رسمتها، وجعلتك أنت وهي والقطة تشاركون بطوط والأولاد وعم دهب في مغامرة بحرية تشبه تلك التي كانوا يخوضونها أيام الثمانينيات .. في المساء، وبعد أن تشاهد فيلمًا من الكلاسيكيات الملائكية؛ أريدك أن تستقل مع صديقيك هذه السيارة المماثلة لتلك التي كانت لدى لوريل وهاردي في مسلسلهما الكارتوني، وأن تتوجهوا لمراقبة البيت القديم الذي تعلمون أن أعضاء جماعة سرية يجتمعون فيه، ويمارسون طقوسًا سحرية مخيفة، وأنهم سلالة لأتباع عقيدة غامضة ظهرت منذ قرون، ويستعملون مخطوطات ووثائقًا عتيقة عن عوالم سرية مختبئة تحت بيوت وشوارع المدينة، تقود إلى خارج الزمن .. سيكون هناك مطر، وظلام، وإضاءة خافتة، وسيتمكن راديو السيارة من التقاط الموجات الأثيرية التي يتواصلون من خلالها مع أقرانهم في أماكن أخرى، وستنصتون إلى خططهم وتحركاتهم داخل المدينة، وسيكون لديكم في السيارة ما يُناسب هذه الرحلة من كتب، وأوراق، وصور، وخرائط، ودفاتر ملاحظات، ولابتوب متصل بالإنترنت، وهواتف محمولة، وطعام، وشراب .. أريدك أن تصدّق أن صديقيك لن يفعلا شيئًا يفسد الأمر .. أرجوك .. توقف عن تعريف البيت بأنه مجرد ممر إلى الشرفة .. أنت في الأربعين الآن، ولم يعد هناك وقت .. غادر هذه الشرفة التي قضيت كل حياتك فيها تراقب الناس، وتتقمص شخصياتهم التي تتخيلها، ثم تلوّح بالوداع لوجوههم بعفوية تزيد قوتها أو تنقص بحسب مستوى الألم الذي تتصوّر أنك قادر على استعماله .. سينتهي بك الأمر لأن تكون مثل جارك العجوز الذي يمضي معظم الوقت في الشرفة المقابلة .. لم يعد يراقب، ولم يعد يتقمص، وإنما أصبح يكتفي بتقليد مشي العابرين .. يردد كلماتهم وانفعالاتهم التي تصل إليه، ولكنه مازال يلوّح بالوداع لوجوههم فور وصولهم إلى نهاية الشارع تاركين ألمًا مضاعفًا غير صالح للاستخدام .. أعلم أن الموسيقى أصبحت من أكثر الأشياء التي تثقل يأسك مثلما تفعل الأفلام الملائكية، وأنه لا يوجد عشب أو زهور أو بحر أو طيور أو فراشات أو غيوم أو قطة أو شجرة، وأنك قتلت طفلتك قبل أن تحاول رسم القصة المصورة، وأنه ليس هناك صديقين ولا سيارة ولا جماعة سرية .. لكن ألا ترى؟ .. أصبح الناس هم الذين يراقبون العجوز الذي لم يعد يتذكر عن ابنته التي صارت شبحًا سوى أنها صاحبة اليدين اللتين تنتزعانه من الشرفة نحو الداخل لإنقاذه من ضحكاتهم.

تقتلني بنعومة

منذ عشرة شهور وثلاثة أيام وساعتين قابلت فتاة تمنيت أن تبدأ معي قصة حب .. أن نخلق دعابة جديدة يكون لها أثر خاص حينما تعيش وتنتهي بالغموض نفسه الذي للميلاد والحياة والموت .. وجدت في هذه البنت أشياءً كنت أعرف أنها ستمنحني السعادة، أي أنها ستعذبني أكثر مما تفعل أشياء أخرى .. لكنني اعتبرت نفسي بالعفوية المعتادة أبعد ما أكون عن الشخص الذي يمكن لهذه البنت أن تحلم بمشاركته اللعب داخل القبو القديم، ولأسباب تتجاوز عمرها الذي يصغرني بعشرين عامًا، أو أنني متزوج وأب لطفلة .. تحاشيًا لخسارة بقائها داخل مساحة القرب الوعرة التي تضمنا كان صمتي بديهيًا في انتظار معجزة تتم دون مجازفة لا أقدر مطلقًا على ارتكابها، حتى أنني تراجعت قبل كتابة هذه القصة عن استخدام ضمير المخاطب كي لا يمارس هذا الضمير سحرًا خفيًا ويمنحها يقينًا قاطعًا بأنني أوجّه كلماتي إليها تحديدًا .. بدأت قصة الحب وحدي منذ التقيتها للمرة الأولى، وإذا لم تحدث المعجزة سأنهيها وحدي أيضًا أو بالأحرى سأمنحها بداية جديدة بدوني؛ ذلك لأنني قررت أن أوصي لهذه البنت باللابتوب الخاص بي؛ ليس من أجل أن تقرأ بعد موتي ما كتبته عن روحها التي تجعلني مرتابًا من يقظتي، وعن ابتسامتها التي تقتلني بنعومة كما غنّى "سيناترا" ذات يوم، وعن صوتها الأكثر رقة مما سمعته في حياتي، والذي يبدد كآبتي الثقيلة كطفل يسترد شتاءه البدائي فجأة، وعن جنوني بعينيها الذي يدفعني لمقاومة التحدث معها أو النظر إليها، وعن تخيلاتي لوجودها معي التي لا يهمد تدفقها، وعن قصصها القصيرة، وعن صورها التي احتفظ بها فحسب؛ وإنما أيضًا لأنها هي فقط التي أريد لأصابعها أن تستعمل نفس أزرار الحروف التي تحمل بصمات أصابعي كي تُكمل جميع الكتابات التي لم يسمح لي الزمن بإتمامها، وأن تنشرها، وأن تتصرف في أسراري كما تشاء .. سواءً فعلت ذلك أم لا؛ فإن القصة ستكون مكتملة هكذا بالنسبة لي، أما عن كيف ستعرف بأمر الوصية فإنني كلفت الشخص الأكثر جدارة بتنفيذها وهو "ممدوح رزق"؛ الرجل الذي يعشق زوجته وطفلته أكثر من أي أحد آخر في العالم، لذا فهو يعرف تمامًا ما الذي تعنيه قصة حب كهذه، فضلًا عن أنه الإنسان الوحيد الذي عندي ضمان لا يقبل الشك بأنه لن يموت قبلي.

امتداد السماء فوق شارع البحر

ذهبت إلى مدرستي الابتدائية ومعي نسخ من روايتي "إثر حادث أليم" تكفي كل زملائي في الفصل وكذلك المعلمات .. وجدتهم يجلسون في أماكنهم بوجوههم وأجسادهم الصغيرة، ويرتدون المرايل البيج، ويضعون حقائبهم عند أقدامهم .. فرحوا بمجيئي رغم جسدي الكبير، والشعيرات البيضاء في رأسي وذقني، ونوايا التجاعيد والتشققات في وجهي .. وزعت عليهم النسخ ثم جلست في مكاني المعتاد داخل الدكة الأولى كي أشاهد انطباعاتهم وهم يتصفحون الرواية .. شعرت بالسعادة لأن الابتسامة الممتنة لم تغب عن ملامحهم مع استمرارهم في القراءة .. بعد قليل خرجت من الفصل متوجهًا إلى حجرة المعلمات كي أعطيهن نسخهن .. استقبلنني بحفاوة بالغة، وبدأت كل واحدة منهن على الفور في تصفح الرواية وعلى وجهها نفس الابتسامة التي كانت لدى زملائي .. تركت حجرة المعلمات عائدًا إلى الفصل، ولكنني لم أدخل من الباب بل قررت التوقف وراء أحد الشبابيك ومراقبة زملائي دون أن يشعروا بي .. من مكاني المتواري رأيت كل ولد وبنت يقطع صفحات من النسخة التي بين يديه ليكرمشها ويلقي بها أسفل قدميه ثم يواصل القراءة فتتحوّل ابتسامته إلى ضحكات متصاعدة .. حينما رن جرس الانصراف؛ وضع كل منهم الرواية في حقيبته ثم بدأوا يخرجون من الفصل .. مروا من أمامي برفقة المعلمات اللاتي كن يضحكن أيضًا داخل الردهة المؤدية إلى السلالم دون أن يلتفتوا لي بينما ظلت ضحكاتهم التي يتخللها التهامس تتمادى في قوتها .. دخلت الفصل الخالي ورحت ألتقط الصفحات المنتزعة من الرواية والملقاة تحت الدكك لأعيد فردها .. اكتشفت أن كل واحد وواحدة منهم قد قطع الصفحات التي ذُكر فيها اسمه أو تحدثت عنه أو حتى أشارت إليه بشكل عابر أو غير مباشر .. توجهت إلى الحجرة المعلمات الخالية فوجدت الصفحات التي تخص كل واحدة منهن مكرمشة وملقاة على الأرض .. كان الأمر مؤلمًا فقررت الخروج من المدرسة وأصوات ضحكاتهم تمرح في رأسي، ونظراتهم التي لم تلتفت لي تجتاح عينيّ .. عدت إلى البيت .. كان أبي وأمي وأشقائي وجدتي في انتظاري، وجميعهم يحملون نسخًا من الرواية متقلصة لأحجام متفاوتة، وبين أقدامهم تتكوّم الصفحات المكرمشة التي تم انتزاعها .. كانوا يقرأون ويضحكون ولم يوجهوا عيونهم نحوي وأنا أقف أمامهم قبل أن أتحرك بتردد نحو الشرفة .. وجدت الجالسين أمام المحلات وعلى ناصية الحارة وأمام المقهى، وكذلك العابرين والواقفين في البلكونات كل منهم يحمل نسخة من الرواية، ويقطع صفحات منها ليكرمشها ويلقيها فوق أرض الشارع ثم يواصل القراءة ويضحك دون أن يرفع أي منهم رأسه تجاهي. أصبح الأمر مؤلمًا أكثر، ولا يمكن تحمّله .. قلت في نفسي أن هذا لم يعد بيتي، وأن عليّ تركه الآن .. خرجت قاصدًا المنزل الذي أعيش فيه مع طفلتي وزوجتي .. قررت بمجرد وصولي أن أغلق على نفسي باب حجرتي، وأن أقرأ قليلا في الرواية من نسختي الخاصة كما تعوّدت .. بعد مرور وقت طويل فتحت طفلتي باب الحجرة ونظرت لي .. لم يكن بين يديّ سوى غلاف الرواية فقط في حين ظلت تتأمل مشدوهة الأعداد الهائلة من الطائرات الورقية الصغيرة التي صنعتها من أجلها.

النفق

يجلس عامل النظافة العجوز على الأرض بجوار مقشته القديمة داخل نفق المحطة حيث تصل القطارات وتغادر فوق رأسه .. يرتشف من كوب الشاي الذي في يده ويردد مع "فاطمة عيد" التي ينبعث صوتها من المسجّل الصغير في يده الأخرى: "ع الزراعية أنا رحت أقابل حبيبي" .. يعبر المسافرون أمامه وينظرون إليه فيبعد عينيه عن عيونهم .. عدا رجل واحد فقط .. رجل في منتصف العمر حينما مر أمامه ونظر إليه لم يحرّك وجهه إلى الناحية الأخرى .. كان في ملامح هذا الرجل شيئًا ما جعل عامل النظافة العجوز يريده أن يرى تلك الدموع الخافتة في عينيه، التي ترتجف دائمًا مع دوي القطارات.

ما لم يسجّله دكتافون أجاثا كريستي

قبل موته أعطاني أبي قناعًا .. بعد فترة قررت استغلال التشابه الذي تأكدت منه بين جميع الأقنعة .. ادعيت فقداني لهذا القناع، وأصبحت أستعير أقنعة أصدقائي كي أواصل الحياة .. كنت كلما أخذت قناع أحدهم لا أرتديه، وإنما أعود به إلى بيتي وأتركه هناك ثم أرتدي قناعي الذي ادعيت ضياعه وأخرج إلى الشوارع .. بعد انقضاء وقت كاف لأن يدرك الناس وجود القناع على وجهي أقوم بنزعه خلسة فيعود وحده إلى البيت بعد أن درّبته جيدًا على ذلك ثم أبدأ بوجه عارٍ ومضطرب في سؤال الناس عنه فينكرون رؤيته .. يؤمنون بأن مجهولًا قد نجح في خطف القناع من على وجهي والاختفاء في لمح البصر كما سأقرر أنا بأسف ويأس، وسيتيقن كل صديق استعرت قناعه من روايتي حينما يعود للاستفسار من الناس الذين سيؤكدون له أنني كنت أحمل قناعًا بالفعل ثم أصبح وجهي مجردًا منه فجأة، وبالطبع لن يدركوا أبدًا أن هذا القناع كان ذلك الذي أعطاه أبي لي، وليس الخاص بصديقي الذي ستصله رسالة فدية .. أطلب من كل واحد مقابل استعادة قناعه أن يكتب سرًا شخصيًا من حياته لا يعرفه أحد، وأن يكون هذا السر مُشبعًا لي حتى لو كان مُختلقًا؛ فسواء كانت الأسرار صادقة أو كاذبة فإنها تمثل وجوهًا لحقيقة الشخص الذي نجمت عنه .. أطلب منه أن يترك السر المكتوب في مكان ما، وإذا كان السر مُرضيًا لي بالفعل أعيد إليه القناع دون أن يكتشف شيئًا، وإذا لم يكن كذلك، أرسل إليه بطلب فدية جديد حتى أحصل على السر الملائم.

امتلأت المدينة بأسرار أصدقائي التي جعلتها متاحة للجميع، ولم يشك أحد منهم أبدًا ـ رغم التكرار المنضبط للحيلة ـ في أنني أقف وراء كل ما يحدث؛ فهم يعتقدون أنني أكثر غباءًا وجُبنًا من التفكير في ذلك .. استمر أصدقائي في إعارة أقنعتهم لي، وتحوّلت دهشتي من عدم ارتيابهم إلى عجز عن التصديق ثم إلى الغضب الذي ظل يتصاعد حتى وصل إلى ذروة مخيفة قررت معها أن أعلن عن نفسي، وعن القناع الذي أعطاه لي أبي ولم أفقده، وعن وقوفي وراء خطف الأقنعة المتكرر، ورسائل طلب الفدية، وفضح الأسرار .. مع ذلك لم يصدقني أحد، ولم يعترفوا بأن القناع الذي ادعيت فقدانه هو الذي أعطاه لي أبي ذلك لأنه يشبه جميع الأقنعة الأخرى بل واستمروا دون انقطاع في إعارة أقنعتهم لي، والاستجابة لكتابة الأسرار الشخصية وتركها من أجلي كأنهم يمنحونها لشخص آخر رغم رؤية أسرارهم تلك وهي بحوزتي، وعندما ازدادت محاولاتي للتأكيد على الحقيقة تمادوا في السخرية من غضبي، وأصبحوا يحاصرونني بالضحكات التي تتراكم يومًا بعد آخر، ومازلت أستطيع تمييز ضحكة أبي القوية من بينهم.

الذكرى السرية لبول شيلدون وإيني ويكلس

أعادتني أمي إلى بيت العائلة .. لا أدري لماذا، أو كيف، لكنني أدركت أنها لن تسمح لي بمغادرته أيضًا .. لم أستطع أن أسألها عما حدث؛ كانت عيناها المرتخيتين بوهن مستسلم تقولان أنها لن تخبرني بأي شيء .. أصبحت أنا وهي نعيش وحدنا في البيت الذي عرفت أنه سيظل مظلمًا طوال الوقت، وأن الليل خارج نوافذه الموصدة بإحكام لن يخمد أبدًا .. مثلما كنا دائمًا منذ زمن بعيد؛ لم نتبادل سوى أقل الكلمات الضرورية، التي تُسيّر الحياة، لكنها لا تكشف أسرارها بل تضمن بقاءها في طي الكتمان .. كانت تؤدي كما تعوّدت في الماضي جميع المهام المنزلية في صمت منهك، ولم تقصّر مطلقًا في توفير العناية الأمومية التقليدية لي، وبشكل ـ كالمعتاد ـ مجرّد من العاطفة المعلنة .. كانت الرهبة الوحشية للغموض تتزايد مع التفكير في الأسباب المبهمة التي جعلت أمي ليست في حاجة للخروج من البيت أو حتى للنظر خارجه، بالإضافة إلى الدوافع التي جعلت الآخرين في الخارج والذين أسمع أصواتهم بوضوح لا يرغبون في طرق الباب الذي تحتفظ بمفتاحه ولو مرة واحدة .. كان من البديهي أن أحاول الهرب، ومع ذلك لم أقدم على تحقيق هذه الضرورة .. كنت أعلم تمامًا أنها ستنجح في منعي .. لم أكن مريضًا أو مصابًا، وإنما كنت رجلا سليمًا في الأربعين، ولكنني استوعبت كيقين عفوي، لا يحتاج لأدلة منطقية أن هذه العجوز المريضة التي تجاوزت السبعين ستمتلك ـ بكيفية مجهولة ـ من القوة الاستثنائية المفاجئة ما يكفي لإجهاض محاولاتي عند ظهور أي بادرة لها .. لم أحاول استغلال نومها كي أجرّب فتح النوافذ، أو الوصول إلى مفتاح البيت، وبالتأكيد لم أحاول الصراخ .. لم يكن معي هاتفي المحمول، أما تليفون البيت فكان من السهل استنتاج أن الحرارة قد فُصلت عنه، وبالطبع لم تكن أمي تمتلك هاتفًا .. سمحت لي بالكتابة حينما طلبت منها ذلك، ولكن كان شرطها الوحيد أن أكتب رواية تحوّل الماضي إلى حياة تعويضية شاملة، مصححة بدقة، من الجمال المثالي .. كانت تريدني أن أكتب شيئًا مناقضًا تمامًا لما تعرف أنني أكتبه دائمًا: لا أحداث واقعية سيئة .. لا تجرّؤ على القدر .. لا تخيلات شيطانية أو كلمات بذيئة .. أحضرت لي رزمة كبيرة من الصفحات البيضاء كانت تحتفظ بها بالإضافة إلى الأقلام، كما سمحت لي أيضًا أن أضيء حجرة مكتبي القديمة كي أتمكن من الكتابة .. أصبحت هذه الحجرة هي المكان الوحيد الذي ينبعث منه النور داخل البيت .. كانت تستجيب بمنتهى الطاعة الطفولية والرجاء المترقب لرفضي الصارم إطلاعها على ما أكتبه، أو حتى على فكرة مختصرة للرواية التي أجبرتها على الانتظار حتى انتهائي منها .. كانت مساحة اللغة اليومية بيننا تتسع مع تنامي شعورها بالسعادة وهي تتابع الامتلاء المتواصل للصفحات البيضاء بالعبارات البعيدة عن متناولها .. عدا المزحة الاعترافية بأن خطي أصبح لطفل في العاشرة بعد سنوات طويلة من عدم استعمال الورقة والقلم، واستخدام اللابتوب الذي سُجنت بدونه؛ عدا ذلك ظلت الكلمات بيني وبين أمي ـ رغم تزايدها ـ مقتصرة على ما هو لازم فحسب، لا تقترب مما حدث قبل أن تُعيدني إلى البيت، ولا تناوش أي مصير محتمل لهذا الاحتجاز الملغز .. لم أرغب في خسارة هذا التغيير بمحاولة إدراجه ضمن صفقة تقترح على أمي إطلاق سراحي مقابل إنجاز الرواية التي ترغبها .. كان لدي تأكدًا تامًا من أنها لن تُنهي هذا الاعتقال مهما أنجزت من كتابات مرضية؛ لذا كان ينبغي أن أحافظ على غنيمة الأوراق والأقلام التي منحتها لي .. بعد وقت طويل أدركت أن ما كتبته طوال الفترة الماضية يفرض عدم بقائي في بيت العائلة لحظة أخرى .. كان يتعيّن عليّ الخروج بهذه الأوراق في أسرع وقت ممكن .. غادرت حجرة مكتبي المضاءة بالنيون الأبيض إلى

الصالة المظلمة فوجدت أمي تقف بانتظاري، وتتمعّن في وجهي بنظرة تؤكد معرفتها بحقيقة ما كتبته، والذي كان معاديًا كليًا لما أرادته، وبأنني قررت أن أتركها الآن .. أمسكت كتفيّ بيدين صلبتين، وتجاعيدها الذابلة تصرخ بغضب عارم دون أن تنفرج شفتاها الصغيرتين .. تملصت منها بصعوبة بالغة ثم جريت إلى الداخل بعيدًا عن باب البيت الذي كانت تحول بيني وبينه .. أسرعت خلفي ولحقت بي ثم دفعتني نحو الجدار بقبضتيها المغتلتين وأمسكت برزمة الأوراق التي أحملها محاولة أخذها من بين يديّ اللتين تتشبثان بها .. استجمعت كل ما لدي من طاقة لانتزاع الأوراق بعدما شعرت أنها قاربت الحصول عليها .. أعدت الرزمة إلى ما بين ذراعي وصدري عنوة ليختل توازن أمي بشكل بسيط، وتسقط بإحدى ركبتيها على الأرض بعدما أصبحت تقبض على الفراغ؛ فانتهزت ذلك وأسرعت نحو باب البيت الذي اكتشفت عندما أدرت مقبضه بيأس أنه لم يكن مغلقًا بالمفتاح مثلمًا تصورت دائمًا .. أدرت عينيّ نحو أمي التي استردت توازنها فورًا، وعاودت الاندفاع خلفي وقد تحوّل الغضب في وجهها إلى شراسة صامتة .. نزلت السلالم جريًا حتى وصلت إلى الشارع، وحينما شعرت أنني أصبحت أمتلك مع المخطوط الذي أحتضنه بين يديّ حريتنا أخيرًا؛ قررت الوقوف داخل سكون الشارع المعتم إلا من أنوار متباعدة غاية في الشحوب انتظارًا لرؤية أمي .. كان يجب أن أطمئن عليها، وحينئذ سيمكنني مواصلة الهروب دون أن تلحق بي .. ظللت واقفًا في انتظار ظهورها، لكنها لم تخرج .. اقتربت بحذر من بوابة البيت متطلعًا إلى السلالم فوجدتها خالية .. رفعت رأسي إلى الشرفة عسى أن أجدها لكنها لم تكن هناك .. فجأة عرفت أن أمي لن تظهر أمامي مطلقًا؛ فهي لم تعد هناك .. عرفت أنني حينما غادرت البيت الآن فإنها قد غادرته أيضًا، وأنني حينما أخطو مبتعدًا عن هذا الشارع ومعي هذه الأوراق فإنها ستتحرك في نفس الاتجاه دون أن أراها.

قصص طفولية تمنح السعادة

انتهى من كتابة التعليق ثم أغلق الموقع قبل أن يطفئ اللابتوب .. هناك شيء غريب .. شعور لم يعهده من قبل .. انتبه إلى أنه كتب هذا التعليق بآلية تامة .. لم يكن يتملكه هذا المزيج الجارف والمعتاد من الألم والغضب والحسرة .. "إعدام في ميدان عام" .. لكنه ينتبه أيضًا إلى أنه يخدع نفسه الآن بطريقة ما .. هذا الإحساس ليس مفاجئًا كما يحاول أن يصوّر لنفسه .. منذ فترة وهو يشعر بانسحاب تدريجي للانفعال الذي كان يسيطر عليه دومًا أثناء التدوين اليومي للتعقيبات في جميع المواقع الإلكترونية التي يتصفحها تحت أخبار جرائم القتل واغتصاب الأطفال .. بدأ هذا الانسحاب بشكل لا يكاد ملحوظًا ثم أصبح من غير الممكن تجاهله .. وصل اليوم إلى ما يشبه الحد الأخير .. لم يكن يعتبر نفسه مجرد شخص عادي، يستمتع بالجلوس أمام الإنترنت ساعات طويلة متجولاً بين المواقع الصحفية كي يكتب التعليقات المعبّرة عن شعوره بالفجيعة تجاه وحشية البشر، المقترنة بالدعوة للقصاص العاجل والمعلن من المجرمين، والتي يختمها باستفهامات صادقة، تفيض بالخوف واليأس عما أصاب الناس في هذا الزمان .. نعم، كان الأمر هكذا في البداية، ولكنه مع مرور الوقت لم يعد كذلك .. أصبحت كتابة التعليقات هوية حقيقية له .. تعريفًا أصليًا لذاته، لم يُطلع عليه أحد .. تحوّلت فكرته عن السطور التي يدوّنها كل يوم مطالبًا بالثأر من القتلة ومغتصبي الأطفال من مجرد تعقيب إلى نوع من المشاركة في القصاص .. مساعدة في تحقيق عدالة لا تتحقق غالبًا دون نقصان .. كان يؤمن أنه بواسطة التعليقات الغزيرة ذات الصيغة الموحدة تقريبًا التي يبصم بها على كل جريمة يمر عليها يساهم في سد الثغرة الدائمة للانتقام من أجل أرواح الضحايا .. كان قد تمكن كذلك من حماية هذا الإيمان بأن عيّن اختلافًا أساسيًا بينه وبين الآخرين كافة الذين يكتبون تعليقات مماثلة .. كان هذا الفرق محددًا في المثابرة .. التفاني الذي لا يتعطل .. عدم التهاون والإخلاص المثالي في كتابة التعقيبات مع كل خبر يصادفه لهذا النوع من الجرائم، وهي الميزة التي يدرك أنها لا تتوفر في غيره.

الآن يشعر بالضيق المشوب بالتوجس؛ فالمسؤلية التي كان يتحمّلها لم يكن يؤديها من باب القيام بواجب روتيني وإنما كعقيدة محصنة بالشغف .. لكن شعوره بالعفوية الباردة لحركة أصابعه فوق أزرار اللابتوب تزعجه بشكل غير محتمل .. بدا كأنما رأى في هذا الإحساس دليلا على بدء خسران المكانة التي اعتبر نفسه جديرًا بأن يحظى بها منذ زمن بعيد.

****

تُلبس طفلتها ثوبًا جميلا .. تمشّط لها شعرها .. تبدأ في ارتداء ملابس أنيقة .. تضع مكياجًا كاملا.. تفكر في المكان التي ستأخذ طفلتها إليه اليوم .. كافيه .. صالة فندق .. حديقة عامة .. حسنًا .. ليكن حديقة عامة؛ فمع هذه الغيوم الداكنة الكثيفة، والهواء البارد، والمطر الذي يبدو وشيكًا لن يذهب إلى الحدائق المفتوحة إلا أولئك المختبئين في الوحدة .. الذين يريدون التمعن في الماضي على نحو منعزل، مستفيدين من التواطؤ الغامض للشتاء، ولهذا فسيكونون في أَمسّ الحاجة إلى غريبٍ غير متوقع .. تغلق باب الشقة .. تنزل السلالم ممسكة بيد طفلتها المشغولة بتأمل خاتمها الصغير في اليد الأخرى .. أصبحت لديها خبرة كبيرة في اختيار رفقائها .. لم تعد تواجه صعوبة في انتقاء الرجال المناسبين وفقًا لنظرات العيون، وانطباعات الملامح، والمظهر

العام .. تستطيع الآن، وبمنتهى السهولة أن تحدد الشخص الملائم، وكيفية الاقتراب منه، وبدء حوار معه سيفضي في النهاية إلى غايتها الأثيرة التي لم تتغير.

****

خرج إلى الشارع لأنه قرر التفكير بعيدًا تمامًا عن بيته في السبب المبهم الذي جعله يكتب "إعدام في ميدان عام" بآلية تامة .. دخلت هي وطفلتها الحديقة .. يعرف أنه منذ ثلاثين سنة لم يدخل هناك حيث كان يلعب مع أصدقائه حول الشجرة الكبيرة التي لا تزال ثابتة في المنتصف .. تجلس المرأة والطفلة على أريكة بجوار الشجرة .. تبدأ بعض القطرات الخفيفة في التساقط من السماء؛ فيقرر الدخول إلى الحديقة لاستقبال المطر هناك .. تبدأ الطفلة في الجري والتقافز حول أمها التي تدعمها بابتسامة لامعة .. يجلس على الأريكة الثانية بجوار الشجرة .. تنظر إليه .. يراقب الطفلة وقد بدأت تلاحق بكفيها القطرات الخفيفة المتساقطة من السماء .. ليس هناك في الحديقة سوى ثلاثتهم .. سيخبر الرجل المرأة بعد قليل أنه حزين من أمر ما، أما هي فستخبره أن هذه الطفلة التي تلعب أمامهما بلا أب .. سيحكي لها أنه يعيش بمفرده في منزل يضيق لحظة بعد أخرى، وستحكي له عن الأسباب التي تجعلها غير راغبة في الزواج ثانية .. سيبنعث رنين هاتف كلا منهما في نفس اللحظة، وسيكتشفان أن كليهما قد خصص نغمة "كارمينا بورانا"، وسيجد كل منهما أيضًا حين يرد على هاتفه أن المتصل قد طلب رقمًا خاطئًا .. لكنهما لن يتوقفا على الإطلاق أمام هذا التطابق، وسيكملان حوارهما كأن شيئًا لم يحدث .. سيطلب منها الرجل أن تأتي معه إلى بيته، وستشترط عليه المرأة أن تحضر طفلتها، وأن يحكي لها قصصًا جميلة لم تسمعها من قبل تمنحها السعادة، حتى تغفو، وحينئذ ستكون المرأة ملكًا له، وبلا مقابل أكثر من هذا .. سيقول الرجل لها أن لديه قصص طفولية كثيرة، ولكنه لا يعرف كيف يحكيها، فضلا عن أنه لم يعد متأكدًا هل هي جميلة وتمنح السعادة أم لا، وستطلب منه المرأة أن يحاول هذه الليلة فقط، لأنها لا تكرر لقاءها بأي رجل مرة أخري.

****

ستصبح الحديقة خالية بعد لحظات، وستتحوّل القطرات الصغيرة المتساقطة من السماء إلى مطر غزير مع حلول الليل .. لا أحد يعرف .. هل سيطالب شخص ما في صباح اليوم التالي ـ ربما يكون المطر قد توقف حينئذ ـ عبر تعليق في موقع إلكتروني، بإعدام هذا الرجل الذي خرج برفقة المرأة والطفلة من الحديقة بالإعدام في ميدان عام؟.

قصتها القصيرة

يتوقف التاكسي بي أمام حاجز المزلقان .. يتعاقب وصول السيارات الأخرى إلى الحاجز فتتوقف بجوار التاكسي من الجانبين .. يقترب العابرون ثم يتوقفون بينما تتأهب آذانهم وعيونهم لمجيء القطار .. أراه يتحرك وحده .. بخطوات بطيئة تدنو من حاجز المزلقان .. ملامحه مزيج من الغضب والضجر .. عيناه تائهتان برجاءٍ مكتوم .. يقف بين العابرين .. يضع يديه في جيبي بنطلونه كمن يحاول إخفاء عجزه عن منحهما الوضعية الصحيحة أثناء الانتظار .. يتلفت حوله بارتباك منهك، كأنه لم يعد يتذكر شيئًا عن نفسه وعن الحياة أكثر من أنه لا يجب أن يعبر الآن .. تتنقل نظراته بين الوجوه التي تحاوطه بتلهف شاحب، يحاول الاختباء، كأنما يبحث عن شخص غامض، لا يعرفه، وفي ذات الوقت لا يريد لهذا الشخص أن ينتبه إلى وجوده لو كان قريبًا منه بالفعل .. ينظر إلى القضبان .. يبدو أنه يتطلع إلى شيء آخر من خلاله، أو بالأحرى ينظر إلى عدم قدرته على رؤية هذا الشيء الآخر .. أسمع صوت القطار .. أراه يخفض عينيه لأسفل كطفل لم يتعوّد أبدًا على مروره رغم السنوات التي شيّبت شعره، ونحتت التجاعيد والخطوط في وجهه .. من حركة رأسه نحو فراغ ما بعد عبور القطار، من صدره الذي يعلو ويهبط بتلاحق ثقيل، من الخروج اليائس ليديه من جيبي بنطلونه، من نصف الخطوة الباهتة لقدمه اليمنى التي تحركت باتجاه حاجز المزلقان وهو يرتفع قبل أن تتوقف مجددًا؛ أكاد أرى الارتجافات القوية لقلبه كأنه تحوّل منذ زمن بعيد إلى مخزن لدوي القطارات .. يتحرك التاكسي بي، ويمر بجوار خطواته السريعة التي تبدو فرارًا، أو سعيًا للحاق بموعد لم يحصل عليه بعد .. يبتعد التاكسي فيغيب عن عينيّ .. أنظر أمامي وأفكر؛ لماذا لم أستطع أن أراه أبدًا هكذا من قبل رغم أننا نعيش معًا منذ خمسة عشر عامًا في بيت واحد؟ .. لماذا يظهر هكذا الآن رغم أننا قبل مغادرتي المنزل منذ أقل من ساعة كنا نضحك في نهاية دعابة قلت له خلالها أنني وطفلتنا سوف نتشارك في قتله لو فكّر في الزواج من واحدة أخرى تكتب قصصًا قصيرة مثله؟ .. لماذا يبدو بجميع طبائعه المتغيرة طوال الماضي شخصًا مختلفًا عن هذا الذي رأيته صدفة اليوم؟ .. لا أعرف؛ هل هكذا يظهر دائمًا كلما توقف عند حاجز المزلقان قبل عبور القضبان وحده بعد مرور القطار؟.

الدوران

حينما أدور وحدي حول بيت قديم في الليل، وأفكر أن السماء لابد أن تمطر الآن .. حينما أتبادل النظر في إحدى مرات الدوران مع قطة هزيلة تقف وحدها في الظلام .. حينما أفقد الرؤية للحظة واحدة مع انزلاقة خفيفة لقدمي أمام عيني القطة فوق مساحة مبللة بماء الصرف الصحي .. حينما أسأل نفسي فجأة: ما هذا الذي أفعله؟ .. حينما أتمعن في البابين الخشبيين للدكان المهجور المغلق تحت البيت، وأتصوّر أن لقاءًا ما يحدث الآن في هذه الساعة المتأخرة ورائهما .. حينما يمر أحد العابرين وينظر إلى وجهي فأبعد عينيّ عنه كلص سيتوقف قلبه قبل أن يسرق أي من المخبوءات التي يجهلها .. حينما أشعر أن ضجيج وثرثرة أربعين عامًا تصرخ جميعها في أذنيّ دفعة واحدة أثناء الخطو .. حينما يتجسّد في ذهني على نحو مباغت مشهد للنهر عند هذه اللحظة من الليل بالرقة المنغمة لتدفق لمعانه الخافت حيث لا أحد يجلس أو يمشي بجواره .. حينما أتذكر كافة الأماكن التي خرجت منها بتوهان أكثر وعورة، بينما كان النهر في انتظاري، ولم أجلس أو أمش بجواره .. حينما أفكر في أن جميع مسارات الأرض الآن خاطئة لأنها لا تؤدي إلى هذا الحيز المنكمش من العالم .. حينما أقف تحت شرفات ونوافذ البيت الكبيرة المتهدمة فأشعر كأنها تشكيلات منحوتة في شجرة عملاقة، غادرت حياتها، وتبدو في هذا الوقت كأنما تعيش نهاية حفل تنكري .. حينما أحاول أن أتخيل امرأة الآن، لم يسبق أن رأيتها من قبل، تساعدني على الطيران إلى هذه الشرفات والنوافذ عوضًا عن اجتياز البوابة المغلقة وصعود السلالم .. حينما أتصوّر أن سيارة ذات طراز عتيق لا يقودها أحد ستندفع فجأة من أحد المنعطفات الجانبية لتدهسني بينما أتخيل هذه المرأة .. حينما أعتقد أن جسدي سيتناثر تحت عجلات هذه السيارة كأشلاء من أوراق وفروع ريحان ولبلاب وأجنحة طيور وأسماك ورقية ملونة ونجوم فضية صغيرة، وأن آخر ما سأراه هو تبدد الجمال العاري للمرأة التي تخيلتها .. حينما أعاود الدوران حول البيت تجنبًا للسيارة التي قد تظهر في أية لحظة، فأشعر كأن صوت المرأة ينبعث من مسلسل إذاعي يبثه راديو ما من مكان قريب مجهول .. حينما أستمر في الدوران، محاولا الإنصات لصوت المرأة كي أكتشف ما تتحدث به فتعود إلى ذهني صورة جسدها العاري، ودون وجه واضح بينما تغرق ببطء في النهر الذي لا أحد يجلس أو يمشي بجواره .. حينما أشعر بطعم البيرة في فمي ورأسي الآن، وأن عينيّ تغمضان تدريجيًا مع اختفاء الثديين الكبيرين للمرأة التي تغرق مع أصوات متداخلة لمطر ومواء قطة وهمهمات شاحبة وصرخات وعاصفة تقتلع شجرة عملاقة وهدير سيارة مسرعة وموسيقى ختامية لمسلسل إذاعي .. حينما أفعل هذا فلن يكون أنا، بل ذلك القربان الثقيل الذي زرعه الوثن الصامت داخلي قبل وجود هذا البيت.

كأنه مكان للسير

إلى مدحت رزق

لم يكن لدي إدراك كامل لطبيعة علاقته بأصدقائه، وإن كنت أعتبر أن عودتك مبكرًا إلى المنزل في المساء خلال فترة البطالة لا تعني أنك لم تحصل على أي من المعجزات الصغيرة التي تعوّدت على الخروج بحثًا عنها بعد كل غروب مع رفقاء ثابتين فحسب، بل تعني أيضًا أن الضجر قد وصل بك إلى درجة من غياب الرحمة تحوّلت معها المقاهي والشوارع من رئات بديلة إلى شرايين مسدودة .. أظن أنه كان يفضل قضاء ما تبقى من الليل بأقل قدر من الإنهاك، وفي نفس الوقت كنت أمتلك يقينًا - دون أدلة تتخطى ملامحه - بأنه الوحيد الذي يترك طاولة المقهى ويرجع إلى البيت، بينما يظل أصدقاؤه كاملي العدد حتى نهاية السهرة، وأنهم يرحلون إلى منازلهم كمجموعة واحدة لا ينقصهم إلا هو .. تدريجيًا بدأ يثبّت تغييرًا في الروتين اليومي لما بعد العودة المبكرة إلى المنزل؛ كان في العادة يبدّل ملابسه ثم يتناول العشاء أمام التليفزيون في الصالة، وإذا كان ما يُعرض على الشاشة فيلم أو تمثيلية أجنبية، كان يواصل الجلوس أمامها حتى موعد النوم، أما في الأحيان الأخرى فقد كان يغلق على نفسه حجرة الصالون، ثم يجلس بجوار شباكها لينظر إلى الشارع عبر الفرجة الصغيرة بين ضلفتيه المتصلتين بالشنكل .. كان كل شيء يتناقص مع مرور الليل أثناء جلوسه الصامت وراء الشباك: العابرون .. السيارات .. الأضواء .. الأصوات .. أعقاب السجائر التي تتساقط من فرجة الشباك الصغيرة كانت هي الشيء الوحيد الذي يتزايد؛ كأن ثمة ارتباط بين الاختفاء التدريجي للحياة داخل الشارع، واستمراره في التدخين طوال الليل .. لكنه في أحد الأيام قرر بدلا من الجلوس في حجرة الصالون أن يقرأ واحدة من روايات مصرية للجيب التي أمتلكها .. كان هذا المساء بداية لعادة يومية أقرب إلى الطقس الذي لا يمكن إهماله .. أصبح بعد الرجوع المبكر إلى البيت، يجلس في سريره بعد تناول العشاء ليقرأ رواية من "ملف المستقبل"، أو "رجل المستحيل"، أو "المكتب رقم 19" .. كان يقرأ أحيانًا روايتين في ليلة واحدة، وأحيانًا كان يضطر لترك سريره واستكمال القراءة في حجرة الصالون كي يسمح لشقيقته الكبرى التي تستيقظ لعملها في الصباح الباكر أن تطفئ النور وتنام .. كنت سعيدًا لأنني حصلت داخل المنزل وبصورة غير متوقعة على من يشاركني هذا الشغف، وكنت سعيدًا أكثر لأن الشخص الذي يشاركني التعلّق بهذه النوعية من الكتب كان هو تحديدًا.

بعد فترة من مواصلة القراءة اليومية، وعندما رن الجرس ذات مساء، فتحت الباب فوجدته يقف أمامي ويحمل في يده اليمنى ثلاثة أعداد من روايات مصرية للجيب .. كان مبتسمًا كمن يغطي حرجًا ما أثناء تجاوزه العتبة ومروره أمامي .. رفع يده التي تحمل الكتب قليلا وهو يوّسع من ابتسامته دون أن يوجّه بصره لي ثم أجاب على الاستفهام المندهش الذي لم أنطق به كأنه يحاول إبقاء الأمر في حدود الدعابة: "اشتريتهم".

بدت نبرته في أذنيّ كأنه يقول شيئًا آخر لا علاقة له بالروايات .. شيء يتسق تمامًا مع عينيه في تلك اللحظة، ومع الطريقة التي يحمل بها الأعداد في يده، والتي جعلته أشبه بطفل مسالم يحمل مقررًا دراسيًا سيساعده في الحصول على عالم يليق بروحه البيضاء .. كانت تلك هيئته الأصلية التي احتفظ بها طوال حياته، ولكن ما أضيف إليها ذلك اليوم جعلها في عينيّ أكثر

إيلامًا .. أغلقت الباب بابتسامة باهتة تحاول إخفاء تأثير المشهد من وجهي كي لا ينتقل إليه في شكل عقاب من الشفقة شعرت أنه يتوقعها ويخشى مواجهتها .. التفت إليّ ثم مد يده التي تحمل الروايات، وبملامح تحوّلت ابتسامتها إلى طيف شاحب، وبنظرة متمسكة بعدم التطلع في عينيّ ، وبنبرة تتحرّك من الخفة الممازحة إلى الجدية البسيطة قال: "شوف كده الأعداد دي عندك".

كأنه كان يريد أن ينهي ارتباكه بهذه العبارة التي تُعادل التبرير .. أن يجعل هذه المفاجأة تخصني أكثر مما تتعلق بالخذلان الموحش الذي كان مجرد ضجر في الماضي .. أن يجعلها تخص شغفنا المشترك أكثر مما ترتبط بالأصدقاء والمقاهي والشوارع التي يعود منها مبكرًا .. لم أكن أريده أن ينتبه إلى الوجوم المرتعش الذي يزيح ابتسامتي الباهتة تدريجيًا وأنا أخبره بعدما انتقلت الروايات الثلاث إلى يديّ بأنه ليس لدي بالفعل أي منها، لكن ما كنت أشعر به كان أقوى من قدرتي على إبقاء الأمر عاديًا .. كانت الأعداد التي اشتراها مستقرة في مكتبتي منذ زمن، ولكن بالطبع لم يكن من الممكن أن أزرع في غفلته هذا الجرح من خيبة الأمل .. قررت دون تفكير التخلص بأسرع ما يمكن من النسخ القديمة لهذه الروايات كي لا يكتشف كذبتي .. تركني متوجهًا إلى حجرتنا لتبديل ملابسه بينما أتابعه في صمت كأنني أؤكد له على معرفتي بما لا نستطيع أن نبوح به .. أن انتصاراتنا ليست في الخارج بل في ما يغتنمه الآخرون الخياليون الذين نعجز حتى عن تقمصهم جيدًا في أرواحنا ونحن جالسين في سرائرنا أو وراء شبابيكنا المواربة آخر الليل .. أدرك أن العالم تحوّل كليًا إلى هذه العزلة، ولهذا قررت أن يكون لك دورًا في تأمين احتياجاتها من الأحلام المنطوية على نفسها بعد أن كنت تعتمد عليّ في ذلك .. حتمًا كان سيخبرني بأنه مر أمام المكتبة صدفة لو سألته عن التفاصيل، لكنني أصدق أن خطواته تعمدت التحرّك إلى هناك بعد أن ترك أصدقاءه وخرج وحيدًا من المقهى .. أعرف أن هذا الشاب الذي بالرغم من وجوده المحدود خارج البيت لم يتوقف عن الاحتفاء بالأحذية، والحرص على اقتناء الكثير منها، والعناية بها، فضلا عن توقفه العفوي أمام كل فاترينة تعرضها، كأنه يجهّز مخزونًا لائقًا بالخيال حين يتحقق، ويصبح بإمكانه المشي فعلا؛ أعرف أن هذا الشاب قرر شراء الروايات بعد أن ظل صامتًا فترة طويلة داخل ضجيج المقهى، ولهذا لم أسأله.

الآن وبعد مرور سنوات كثيرة جدًا، توقف خلالها عن قراءة روايات مصرية للجيب، وعن الذهاب إلى المقهى والجلوس مع أصدقائه، بينما استمر في الاحتفاء بالأحذية؛ ها أنا أجلس فوق الدرجة الأولى من السلم المجاور لباب شقته المفتوح .. أستطيع أن أرى بوضوح تام باب حجرة نومه المغلق، والملاصق لباب الشقة .. أثناء صعودي مررت على بعض أصدقائه الواقفين تحت العمارة، والذين جاءوا بأسرع ما يمكنهم .. احتضنني أحدهم وهو يبكي بشدة، بينما رحت أربت برفق على ظهره بملامح جامدة .. كأن الجثة الراقدة وراء الباب المغلق لأخيه هو، وكأنني صديق هذا الأخ الذي لم يمر على موته سوى أقل من نصف ساعة .. أسمع من مكاني فوق السلم البكاء الجماعي الصاخب المقترن بتدوير كليشيهات الفجيعة للنساء المحتشدات في الصالة، والذي يتخلله الصوت المرتفع لقارئ القرآن المنبعث من التليفزيون كأنه يشدو بترانيم منتشية لقاتل متسلسل .. تخرج سكرتيرة أخي وتقف أمامي بوجه ممتقع، والدموع تتدفق من عينيها .. أسألها بصوت خافت ومتوسل عما حدث، كأن حصولي على هذه المعرفة سيعيد أخي إلى الحياة .. تخبرني بلهجة من يسرد خرافة لا يستطيع تصديق حدوثها أن أخي أتى إلى المكتب في السادسة والنصف، وكان طبيعيًا للغاية، وفي حالة صحية مثالية، لكن بعد تجاوز السابعة بدقائق

قليلة، وبينما كان جالسًا وراء مكتبه شعر فجأة ببعض التعب فطلب منها أن تُحضر واحدة من الليمون المخلل من البقّال المجاور .. حينما عادت بها إليه، وبدأ في أكلها طلب أن تعد له كوبًا من الشاي، لكنها بعد أن جاءت إليه به؛ رأت وجهه قد تحوّل إلى الاصفرار الشديد كما تناثرت قطرات العرق فوق جبهته رغم برودة الجو .. أخبرها أن تذهب لتنادي صديقه الطبيب الذي تقع عيادته على بُعد خطوات من المكتب كي يقيس له ضغط الدم .. عندما رجعت إليه بالطبيب وجدته ممددًا على الأرض، فاقدًا للوعي .. أخبرها الطبيب أنه يحتضر، وينبغي نقله إلى المستشفى فورًا .. أسرع بعض من جيرانه داخل الشارع بالانتقال به سريعًا إلى أقرب مستشفى في سيارة أحدهم لكنه وصل إلى هناك ميتًا.

كان صوتها مرتجفًا، وجسدها ينتفض، والدموع يتزايد انهمارها على خديها، وحينما رأتني أوجّه بصري إلى الأرض دون كلمة واحدة بعد انتهاء الحكاية القصيرة قالت: "البقية في حياتك" .. تركتني لتنزل السلم، وأنا أصغي لابتعاد خطواتها المثقلة بالصدمة وأفكر في بقية حياتي.

تدور عينيّ داخل المساحة الصغيرة أمام باب الشقة المفتوح والمضاءة بالنور الأبيض لمصباح النيون الذي يعلو الباب .. لا أستطيع أن أرى أخي الآن كشخص آخر غير ذلك الشاب في بداية الثلاثينيات الذي كان يقف فيه عند عتبة بيت العائلة حاملا في يده اليمنى ثلاثة أعداد من روايات مصرية للجيب .. كان الوقت مساءًا أيضًا، كما كانت هناك مساحة صغيرة مماثلة أمام الباب الذي فتحته بعد أن رن الجرس .. أشعر في هذه اللحظة بأن ما كان متواريًا في ذلك الفراغ المسائي القديم يعلن الآن عن نفسه لي بأكثر الأساليب وقاحة داخل نسخة منه، أو ربما كان هو الفراغ ذاته وقد تمدد مع خطوات أخي التي ظلت تعبر هذه العتبة طوال السنوات الماضية، ثم تجاوزها ميتًا منذ وقت قليل محمولا فوق الأكتاف.

أسمع صوت أقدام تصعد مصحوبة بهمهمات ضعيفة ومتقطعة .. يمر أصدقاؤه أمامي واحدًا وراء الآخر .. يتطلع كل منهم إلى وجهي بذهول ثم يدير رأسه ولا يقول شيئًا .. الصرخات متحجرة في عيونهم .. خطواتهم بطيئة، مرتعشة .. الألم يخنق ملامحهم دون بكاء .. أحيانًا تكون الدموع إدانة للباكي .. استجابة رخيصة لا تليق بالفقدان .. يصبح غيابها في المقابل دليلا على الاحترام وعدم التورط في الاستهانة .. يستأذنون زوجة أخي في إلقاء النظرة الأخيرة عليه .. أحدّق في وجوههم وأفكر في أنهم يكشفون الآن عن قرينة لجريمة أفظع من البكاء .. أنهم قادرون ببساطة على رؤية صديقهم ميتًا .. تفتح لهم زوجته باب الحجرة .. يعبرون إلى الداخل تباعًا بينما صفوف أحذيته الكثيرة تظهر لي متراصة فوق أرفف الخزانة المستندة إلى جدار الحجرة .. أنظر في عيني كل واحد منهم بعد أن يدخل، ويحرّك بصره حيث يقع السرير غير المكشوف لي محاولا دون إصرار تخيّل أخي الممدد فوقه عبر نظرة صديقه .. تختفي خزانة الأحذية مجددًا عن عينيّ مع إغلاق الباب .. لماذا يغلق أصدقاؤه حجرة النوم الآن؟ .. ليس بوسعهم رؤية أخي ميتًا وحسب، بل يستطيعون أيضًا الانفراد بموته دون إحساس بالعار .. لا أحد منهم يعجز عن قبول تحوّل أخي إلى جثة .. لا أحد منهم يشعر بضرورة تفادي مواجهة تلك الحقيقة طالما لا يستطيع تغييرها .. لم تمر سوى دقائق قليلة حتى فُتح الباب، وخرج أصدقاؤه بنفس الملامح التي دخلوا حجرة نومه بها .. كأنهم لم يفشلوا في خدش الجحيم بقدر ما كانوا جزءًا من سعادته المتشفية .. تظهر خزانة الأحذية مجددًا لي قبل أن تختفي ثانية مع إغلاق الباب بيد آخر من خرج .. قالت أختي الكبرى فيما بعد أنهم أرادوا توديعه في نطاق من

الخصوصية اللائق بالعمر الطويل لصداقتهم .. أختي أيضًا كان بوسعها أن تبكي كما لم يبك أحد في العالم .. كان في استطاعتها كذلك أن تغلق على نفسها باب الحجرة مع جثته وتتحدث معه .. أما أنا فبدلا من البكاء ورؤية موته سأظل كل يوم لأسابيع طويلة وفي لحظات النوم الخاطفة أرى نفسي داخل مكتبه يوم السبت 2 فبراير 2013 في السابعة مساءًا .. أقف أمامه وهو جالس ممسكًا بالريموت كنترول ويقلّب قنوات التليفزيون الذي يعلو الطاولة المستقرة أمام المكتب، بينما في يدي حقنة لا أعرف عن الدواء الذي تحتويه أكثر من أنه سيتكفل برفع ضغط الدم بمجرد أن يشعر أخي بأعراض انخفاضه .. كأنني كل مرة أشعر بأن الحلم سينتهي قبل تمكني من إنقاذه؛ لذا أحاول دائمًا أن أحقنه بالدواء قبل بداية شعوره بالتعب وهو يقاومني باستغراب ضاحك بينما أرجوه الاستجابة لي بنبرة تكتم نحيبًا ثم أستيقظ.

مرت خمس سنوات .. تخلصت من جميع أصدقائي .. لم أعد أخرج من البيت إلا نادرًا .. مازلت أتردد طويلا قبل شراء حذاء جديد .. عدت إلى القصص والروايات البوليسية التي كنت قد توقفت عن قراءتها منذ أكثر من عشرين عامًا .. لم أعد أحلم باللحظات التي سبقت موت أخي، لكن صورة أحذيته المتراصة داخل الخزانة بجوار جثته ما زالت تطاردني في اليقظة.

لغة جنائزية

في بداية المساء وقبل أن تخرج زوجتي مثل كل يوم مع طفلتي للذهاب إلى أمها سألتني عند باب البيت إذا كنت أريد شيئًا .. طلبت منها أن تشتري صحيفة لي؛ إذ لم أكن متأكدًا من خروجي الليلة .. قبل أن تغلق الباب وراءها نبّهت عليّ بألا أنسى إحكام غلق باب الشرفة إذا ما فتحتها كي لا يدخل أحد الفئران المتسللة من السطح .. أعددت كوبًا من الشاي ثم فتحت الشرفة لأقف بداخلها عدة دقائق، وبعد خروجي لم أنس إغلاقها .. اتصل أحد أصدقائي بعد قليل كي يطلب لقائي في المقهى .. لم يكن لدي انشغال بأمر هام؛ لذا بدّلت ملابسي ثم خرجت واستقللت تاكسيًا .. شاركت صديقي الجلوس ساعة ونصف تقريبًا ثم غادرنا المقهى .. تركني صديقي عائدًا إلى بيته بينما دفعني الطقس البارد الممتع إلى أن أقرر التمشية قليلا قبل رجوعي إلى المنزل .. بعد ما يقرب من عشر دقائق، وبينما كان البيت لا يزال بعيدًا على نحو ما، والطريق الواسع تتدفق من خلاله السيارات المسرعة على الجانبين؛ رأيت امرأة قادمة من بعيد .. لم يكن هناك بشر كثيرون يفصلون بيننا في هذا الليل البارد، لذا كنت قادرًا على رؤية وجهها بشكل متواصل وهو يتضح تدريجيًا مع اقتربها .. كانت زوجتي .. للوهلة الأولى لم أعرفها ولا أدري لماذا .. كانت تحمل الملامح ذاتها، وترتدي نفس الملابس التي خرجت بها من البيت في بداية المساء، ومع ذلك شعرت أنها تمثل في هذه اللحظة وجودًا مبهمًا، وأن ثمة ضرورة لمحاولة اكتشاف صلتي به .. ظللت أحدّق في وجهها مبطئًا من خطواتي ثم توقفت وهي تواصل التقدم نحوي .. بدأت هي كذلك تبطئ من خطواتها حتى توقفت أمامي .. ابتسمت بطريقة تدل على أنها لم تعرفني أيضًا، وأنها تحاول التأكد من أنني أنا بالفعل رغم تيقنها من أنه لم يطرأ أدنى تغير على صورتي المعتادة .. لم تكن طفلتي معها، لكنني لم أتعجب من ذلك، ولم أسألها عن السبب .. كان عدم وجود طفلتي يزيد من شعوري بمنطقية هذا اللقاء غير المتوقع، وبأنه حتمًا ليس مجرد صدفة.

سألتها: رايحة فين؟

أحسست بالدهشة من النبرة التي خرج بها هذا الاستفهام من فمي .. كأن شخصًا آخر هو الذي نطق به .. بدا في أذنيّ كأنما ولد صغير مرتبك، يحاول بمزيج من التلهف الغامض والبهجة الخجولة أن يتعرّف بفتاة أصغر منه قليلا للمرة الأولى، أو أن عجوزًا أكبر مني بعشرات السنوات يسعى بحرج لتذكير امرأة تحمل ضعف عمر زوجتي بشيء ما، أو أن يعيد ربط خيط قديم انقطع بينهما منذ زمن .. لم أجد في ملامح زوجتي أثرًا للدهشة، بل انسجام تام مع نبرة سؤالي.

- مفيش .. الجو حلو، قلت أتمشّى شوية.

لم أستغرب إجابتها، مثلما لم أستغرب لهجة هذه الإجابة .. بدا صوتها هي الأخرى كأنه لبنت متحيّرة، تحاول إخفاء فرح منهك شعرت به فجأة نتيجة هذا اللقاء غير المنتظر .. ظهر على وجهها أنها تدرك ملائمة هذه اللهجة التي ردت بها لأن تكون لامرأة عجوز أيضًا، وأنها كانت مباغتة لها .. مرت لحظات صمت غريبة .. ابتسامتان متقابلتان، غائمتان، مثقلتان بعدم الفهم والحسرة والرجاء .. أحسست كأنه موعد دبّرناه سويًا دون اتفاق كي نقف في هذا الوقت البارد

من الليل، وفي هذا الطريق الذي تتدافع فيه السيارات بجوارنا، وتحت هذه الأضواء البيضاء الكثيفة والساطعة .. كأنه موعد دُبِر لنا، وتم تسييرنا إليه، حتى يشعر كلا منا حين ينظر في عيني الآخر بأنه يريد أن يسأله عما حدث طوال السنوات الكثيرة الماضية دون أن يمتلك القدرة على ذلك.

شعرت باختناق الدموع في حلقي، وبدت هي كذلك على وشك البكاء .. وجدت نفسي أقول لها مستردًا صوتي التقليدي، وأنا أبُعد نظرتي اليائسة عن ملامحها التي اختفت الابتسامة منها.

ـ أنا راجع البيت .. متتأخريش.

تركتها مواصلا المشي بساقين مرتعشتين، لتكمل سيرها في الاتجاه الآخر .. لم يلتفت أي منا وراءه.

رفعت عينيّ عن شاشة اللابتوب حينما فُتح باب المنزل ودخلت زوجتي وطفلتي .. أسرعت طفلتي كالعادة نحوي لتقبّلني بينما رحت أتأمل وجه زوجتي وهي تُغلق الباب .. كان يحمل نفس الانطباع المألوف الذي خرجت به من البيت .. قبل أن تتقدم نحو حجرة النوم أخرجت نسخة الجريدة من حقيبتها وناولتها لي وهي تسألني بنبرة روتينية إذا كنت أشعر بالجوع الآن. رددت عليها بنفي مقتضب وخافت بينما كانت تلتفت نحو الشرفة لتتأكد أنها محكمة الإغلاق.

مسافات صغيرة

أحرّض طفلتي على شراء الدُمى التي تصلح حين تتركها كل مساء وتخرج مع أمها لأن تجلس بجانبي وأنا أكتب، أو أقرأ، أو أشاهد التليفزيون، أو ألعب على الهاتف، أو تنظر لي وأنا أدور ببطء بين الحجرات مطرق الرأس، أو تنتظرني حين أقف في الشباك لأراقب جاري العجوز الجالس طوال الوقت في شرفته، ولا أراه يخرج إلا نادرًا؛ حيث يتحرك خطوات قليلة في الشارع حتى يقابل صحبة ما من غريبين أو أكثر يقفان معًا؛ فيتوجّه إليهما ويصافحهما في صمت وتجهم ثم يترك الدهشة على وجهيهما ويعود فورًا إلى البيت.

الساحر

كان يقف وسط الحلبة التي تظللها الخيمة الكبيرة وسط الأضواء المتراقصة والموسيقى الاحتفالية الصاخبة ذات الإيقاعات القوية .. سألت زوجتي: هل رأيتِ هذا الرجل من قبل؟ دققت في ملامحه وهو يشعل نارًا صغيرة داخل وعاء ويغلقه ثم يعيد فتحه لتطير حمامة بيضاء من فتحته الدائرية وتستقر على أرض الحلبة مع تصفيق الجمهور.

قالت: نعم، ولكن لا أتذكر أين؟

ـ أليس هو الرجل الذي كان يقطع التذاكر في الخارج؟

عادت للتمعن في وجهه ثم قالت: فعلا .. أعتقد أنه هو.

ابتسمنا معًا؛ إذ بدا الاكتشاف غريبًا .. أنهى الساحر فقرته ثم خرج بحركات استعراضية من الخيمة وأنا أفكر في أنه يستطيع بالطبع أن يُغلق الوعاء المعدني على حمامة بيضاء ثم يُعيد فتحه لتخرج نار صغيرة رغم أنه لم يفعل ذلك أمامنا .. تدخل الحلبة شابة جميلة، ترتدي بياضًا كاملاً كابنة للغابة ثم تتراجع مذعورة بأداء راقص وهي تحدق في المدخل الذي عبرت منه حيث يقتحم أحدهم الحلبة ورائها في زي غوريلا ليحاول الإمساك بها .. يدخل المنقذ متنكرًا كرجل بدائي، وممسكًا بخنجر لتبدأ معركته مع الغوريلا التي تستلقي الشابة الجميلة المذعورة على الأرض مترقبة نهايتها .. نظرت أنا وزوجتي إلى بعضنا ثم ضحكنا في نفس اللحظة .. كان المنقذ هو قاطع التذاكر والساحر الذي قتل الغوريلا ثم احتضن سعادة الشابة الجميلة ليتعلقا سويًا بالحبال المطاطية التي ترتفع بهما إلى سقف الخيمة فوق رؤوس الجميع .. تتحوّل الموسيقى إلى النعومة الجارفة مع التعانق والتشابك والدوران بوضعيات رومانسية وشهوانية مختلفة للمنقذ والشابة الجميلة في الهواء .. كان تصفيق الجمهور يتخلل المشاهد الأكروباتية المتلاحقة التي تشكلها المرونة الفائقة لجسديهما داخل الفراغ العالي المضاء بتنويعات لونية متحركة .. يخرج المنقذ والشابة الجميلة من الحلبة وأنا أخبر زوجتي بالدعابة التقليدية التي أصبح تمريرها روتينًا في مصادفات كهذه: أعتقد أنني سأراه ممسكًا بعلبة المناديل الورقية عند باب الحمام.

تضحك زوجتي بينما ضجيج فترة الاستراحة يتصاعد من حولنا .. أنتبه بعد قليل إلى نقطة وسط الجمهور على الجانب الآخر يتجمّع عندها كثير من الأطفال .. كان هناك رجل يرتدي قميصًا وبنطلونًا تقليديين يعطي ظهره لنا، ويحمل كيسًا شفافًا كبيرًا يحوي كرات الأنف الحمراء التي يستعملها المهرجون .. قلت في نفسي إنني لن أندهش إذا ما اكتشفت عندما يلتفت الرجل ناحيتي أنه قاطع التذاكر والساحر ولاعب الأكروبات .. بالفعل لم أندهش ولكنني شعرت باستغراب حاد، وأنا أشير نحوه لتنبيه زوجتي دون كلمة واحدة فضحكت بصورة أقوى من المرة السابقة .. الآن لم يعد وقوف هذا الرجل ممسكا بعلبة المناديل الورقية عند باب الحمام دعابة .. أسمع زوجتي تقول: يبدو أنه لا يوجد في السيرك أحد غيره.

لا أرد على تعليقها بينما أراقب انتهاءه من بيع كرات المهرج للأطفال ثم عودته إلى الخارج .. يبدأ العاملون في نقل الأجزاء الحديدية الضخمة إلى الخيمة والتي ستكوّن مع تلاحمها قفصًا دائريًا يفصل الحلبة عن الجمهور تمهيدًا لاستعراض الأسود .. لم يكن عندي شك في أن المروّض الذي سيدخل الآن وراء الأربعة أسود الكبيرة التي تعاقب مرورها إلى القفص سيكون قاطع التذاكر والساحر ولاعب الأكروبات وبائع كرات المهرج للأطفال .. سمعت زوجتي

تشهق معلنة وصول تعجبها إلى درجة من عدم التصديق مع دخول الرجل الذي توقعته إلى الحلبة مرتديًا تيشيرت أبيض بلا أكمام يكشف عن عضلات ذراعين مفتولة، وبنطلون رياضي خفيف بلون رمادي، وفي كل يد يمسك بعصا معدنية طويلة .. كان التتابع السريع للإيقاعات الموسيقية الثقيلة يضخ موجات الإثارة في هواء الخيمة مع استجابة الأسود الأربعة لإشارات المروّض بالقفز والاستلقاء والمعانقة والتقبيل وتناول قطعة الطعام من فمه والعبور فوق جسده الممدد قبل أن يمتطي ما يبدو أنه أكثر الأسود شراسة وهو يرفع ذراعيه للجمهور معلنًا بهذا التفاخر نهاية العرض.

انتظرت أنا وزوجتي قليلا حتى تتخفف الممرات من جموع الخارجين ثم بدأنا في التحرّك بينما الأضواء والموسيقى مازالت تتراقص وتصدح في عيوننا وآذاننا رغم توقفها .. أثناء اقترابنا من أحد أبواب الخروج رأيت قاطع التذاكر والساحر ولاعب الأكروبات وبائع كرات المهرج للأطفال ومروّض الأسود واقفًا ينظّم بملامح جامدة خروج الجمهور من الخيمة .. كان يرتدي نفس القميص والبنطلون اللذين كان يرتديهما وهو يبيع كرات المهرج للأطفال .. مررنا بجواره على نحو قريب للغاية ونظرنا إلى وجهه في حين كانت عيناه مركزتين على العابرين وراءنا كأنما كان لديه اطمئنان عفوي بأننا لسنا في حاجة لانتباهه .. عندما وصلنا إلى الطريق قالت زوجتي بما يشبه الذهول الذي يخلو تمامًا من المرح: أنا لا أصدق فعلا .. ما حدث أشبه بالحلم.

رددت عليها بحياد خافت ومقتضب، كأنها إجابة مبرمجة داخلي: إنه رجل متعدد المواهب.

ثم أضفت بعد برهة: ويجيد تغيير ملابسه بسرعة أيضًا.

انتبهت إلى سخافة هذا التعليق الإضافي وأنا أمد يدي لأوقف تاكسيًا .. حينما جلسنا في الكنبة الخلفية نظرت عبر المرآة التي تواجه السائق إلى ملامحه .. لم يكن بالطبع وجه قاطع التذاكر والساحر ولاعب الأكروبات وبائع كرات المهرج للأطفال ومروّض الأسود بل كان رجلا مختلفًا ومع ذلك ظللت أتطلع إليه بين حين وآخر حتى وصلنا إلى البيت .. فتحت الباب ثم عبرنا إلى الداخل كي نواصل الحياة بشكل طبيعي جدًا.

تحضير الأرواح

خرجت من البيت في الصباح الباكر، أحمل الحقيبة القماشية الكاروهات الكبيرة ذات اليدين الخشبيتين، وبداخلها الساندويتشات وترمس الشاي .. قابلت صديقة أمي عند ناصية السوق حسب الموعد ثم توجهنا إلى بيت جدتي الذي يقع في حارة ضيقة من حي شعبي حيث صعدنا سلالمه المتهدمة وطرقنا باب جارتها العجوز التي كانت في انتظارنا .. صعد ثلاثتنا إلى سطح البيت وجلسنا هناك لنأكل الساندويتشات ونشرب الشاي ونتحدث حتى الظهيرة .. نزلنا جميعًا إلى الشارع ثم ذهبنا إلى المقهى المطل على النيل حيث يجلس أصدقاء أخي الكبير .. شاركناهم لعب الطاولة والدومينو حتى العصر، ثم ذهب أحدهم لإحضار وجبة الغذاء لنا .. خرجنا من المقهى بعد تناول الطعام كي نتوجه كلنا إلى منزل صديقة أختي الكبرى .. رأيناها تنتظرنا في شرفتها، وبعد لحظات نزلت إلينا ثم ذهبنا معها إلى أحد المحلات لشراء بعض الأقمشة .. كان المساء في بدايته حينما خرجنا من المحل في طريقنا أنا وصديقة أمي وجارة جدتي وأصدقاء أخي الكبير وصديقة أختي الكبرى إلى بيت صديق أبي .. استضافنا الرجل العجوز داخل ما يشبه استراحة واسعة في الدور الأرضي من منزله .. كانت مضاءة بالنيون الأبيض الساطع، ومؤثثة بالمقاعد والأرائك الناعمة، وتطل شبابيكها المفتوحة على الصمت المظلم لأرض زراعية كبيرة، والذي يتخلله الصفير المتواصل لصرصور الليل .. كانت هذه الأرض تفصل البيت عن طريق السفر الملوّن بالضوء الأصفر لمصابيح أعمدة الإنارة المتراصة على امتداده، وهو ما جعلنا نشاهد الشاحنات العتيقة الضخمة التي لم يتوقف عبورها من هذا الطريق ..

أمضينا الوقت في الكلام والضحك وشُرب القهوة حتى التاسعة تقريبًا ثم خرجنا من منزل صديق أبي لنتوجه جميعًا إلى مطعم أحد الفنادق الذي يجلس أصدقاء أخي الأكبر تحت أضوائه الخافتة في انتظارنا .. ظللنا هناك حتى الواحدة بعد منتصف الليل حيث تناولنا العشاء وشربنا "ستلا" مع سجائر "المارلبورو" والفول السوداني ثم خرجنا من الفندق أنا وصديقة أمي وجارة جدتي وأصدقاء أخي الكبير وصديقة أختي الكبرى وصديق أبي وأصدقاء أخي الأكبر .. كان الظلام يمطر بقوة متأرجحة بينما نخطو داخل سكون الشوارع القريبة من الفندق ثم نصعد سلالم البيت القديم إلى شقة امرأة جميلة كانت مقصدًا دائمًا لأخي الأكبر وأصدقائه .. فتحت لنا المرأة الجميلة بابها، وحينما دخلنا وجدنا العديد من رفيقات الليل في انتظارنا .. كانت فروع الزينة الورقية المزركشة تتعانق في سقف الصالة، وتتدلى من كثافتها بالونات غزيرة تلتصق بألوانها المختلفة ابتسامات لوجوه صغيرة .. كان صوت "وردة" ينبعث من المسجّل الكبير المستقر داخل المكتبة العريضة وهي تغني: "دي كل حاجة اتغيرت، آآآه قدام عينيا .. وكل شيء في الدنيا حلو، حلو حلو بأقول دا ليا .. وأي حاجة ألمسها تحلو في إيديا ودا من نهار حبك ما جه ما جه، وسلم عليا .. آ يا حبيبي كنت واحشني، من غير ماشوفك وتشوفني، والقدر الحلو آهو جابني .. الحلو الحلو جابني، وجابك علشان تقابلني، وجابك علشان تقابلني، واتارينا، كنا تايهين ولقينا .. أحلى أيام ليالينا .. واحنا فيها لوحدينا".

أطفأت المرأة الجميلة أضواء الشقة ثم فتحت شرفتها الواسعة عن آخرها ونحن نتجرد جميعًا من ثيابنا ونجلس أمامها في الظلام المتوحد بالعتمة الممطرة في الخارج .. كان كل ما في المدينة ينكمش ويتحوّل إلى نسائم باردة تتدفق عبر الشرفة كي نتنفسها وتغتسل بها أجسادنا العارية التي سلمناها لرفيقات الليل .. كافة الحكايات تعبر إلى دمائنا بينما نحدق في الغيوم الكثيفة ونراقب المطر فنرتعش أنا وصديقة أمي وجارة جدتي وأصدقاء أخي الكبير وصديقة شقيقتي الكبرى

وصديق أبي وأصدقاء أخي الأكبر بدفء من نوع آخر، أو كأن لذة هذا البرد الجارف هي الجوهر الحقيقي للدفء .. مشاهد للبشر في كل الشوارع والبيوت تتلاحق برقة متناهية وتتجمع داخلنا .. جميع ذكريات المدينة تسكن أرواحنا بتدرّج ناعم مع جلوس المرأة الجميلة المبتسمة على الأرض أمامنا .. بين الأفق السماوي الممتد بغيومه الداكنة عبر الشرفة وعيوننا .. نتمعن في ملامحها فنجدها تتقلّب بتناغم حنون بين وجوه أمي وجدتي وأخي الكبير وأختي الكبرى وأبي وأخي الأكبر .. نرى سعادتهم الكاملة داخل هذا التبادل لملامحهم في وجه المرأة الجميلة .. يبدأ هذا الوجه في الامتزاج بالأفق السماوي الممتد ورائه لحظة بعد أخرى .. يصبح جسدها العاري كله جزءًا من هذا الأفق وهي تتمدد على الأرض أمامنا بينما تصل بنا رفيقات الليل إلى ذروة النشوة .. نرى خيالات متباينة لجسد المرأة تتراقص من حولنا ثم تتلاشى ومعها يختفي كل شيء: المرأة الجميلة ورفيقات الليل وفروع الزينة والبالونات والشرفة بينما بقي الظلام والبرد والغيوم الداكنة الكثيفة كما هم .. تستغرق المدينة الموزعة داخلنا في النوم كطفلة آمنة على صوت المطر، وغناء وردة وهي تُعيد "في يوم وليلة" دون توقف.

البرد

لا ينامون في الليل بسبب صوته .. الصوت الذي كان مرعبًا جدًا حينما سمعوه للمرة الأولى منذ عدة أسابيع .. الذي لم تكن كلماته مفهومة ثم أصبحت مستوعبة بالتدريج .. الذي صار مألوفًا ولكنه لا يزال مزعجًا .. صوت الطفل الخفي الذي يتحرك في الشقة آخر كل ليل، ويقول بحروف متكسرة وشبه مطموسة إنه يشعر بالبرد رغم ملابسه الثقيلة، وإنه يحتاج فقط ليدين كبيرتين ترتبان الثياب الكثيرة التي يرتديها فوق بعضها، وتحكمان إدخال أطرافها تحت بنطلون بيچامته .. لا ينامون في الليل لأنه طفل مزعج، ولا يستطيع أن يفهم رغم محاولاتهم المتواصلة لإخباره بأنهم موتى.

قالي كلام

ماذا تريد "شادية" أكثر من أن توقف امرأة في الستين، تعيش وحدها منذ سنوات طويلة شقيقها الأصغر فجأة وهو عند باب شقتها في نهاية زيارته الأسبوعية لها بعد أن سمعت أن "الدلوعة" تحتضر ثم تطلب من آخر من تبقى في الحياة من أسرتها أن يُحضِر على هاتفه المحمول في زيارته القادمة لها أغنية "قالي كلام" كي تنقلها إلى هاتفها الذي لا يرن إلا نادرًا.

خارج الذاكرة

امرأة لم تعد تعيش بالبيت، ولا بأي مكان آخر في الدنيا .. لكن الولد الصغير يسهر كل يوم ليشاهد أباه وهو يحاول استعادتها من كتلة حجرية كبيرة قد تشبه الموت .. كان الولد يستمع دائمًا إلى موسيقى ساحرة تنبعث من النافذة المفتوحة برفقة النسمات الليلية المتلاحقة، وعندما كشفت يدا الأب بالإزميل والمطرقة عن الشعر القصير؛ تذكر الولد نعومته الطفولية، وهي تمشطه ثم تعقصه خلف رأسها .. حينما برزت عيناها استرجع ضعف بصرها، ونظرتها الحريرية المسالمة .. مع ظهور يدها أحس بدفء احتضانها الرقيق لكفه، وهي تأخذه إلى المدرسة، أو تصحبه معها إلى السوق .. كان يجلس وينتظر، ويتأمل الحنين وهو يقاوم التعب الذي يثقل ملامح أبيه، ويفرح مثله كلما تخيل الوجه الوديع على وشك أن يتكلم بصوتها الخافت المعهود.

كل ليلة بعد أن ينام الأب كي يحلم بما لم ينتزعه بعد من الكتلة الحجرية الكبيرة، يذهب الولد الصغير إلى التمثال، ومعه كراسة الرسم وعلبة الألوان ليجلس أمامه على نحو أقرب مما كان يفعل أثناء انشغال أبيه بالنحت .. يواصل بأصابع مرتعشة رسم مشهد المرأة الجميلة التي تجلس مبتسمة في سعادة فوق أرجوحة واسعة، محاطة بالأشجار والزهور، بجوار بحيرة مستكينة بصفاء لامع.

بعد سنوات كثيرة .. جلس الولد الذي لم يعد صغيرًا أمام التمثال الحجري ومعه كراسة رسم قديمة .. كانت الدموع التي حبسها طويلًا تتساقط من عينيه، وهو يضيف الرجل الذي نحت التمثال إلى الأرجوحة بجوار المرأة الجميلة.

حينما أصبح الولد كبيرًا جدًا، وبعد أن أصبح لديه طفلة صغيرة، تحب النظر إلى الغيوم، واستقبال قطرات المطر في راحتي يديها، وتتساءل طوال الوقت عن الحياة والموت، وبعد أن فشل في القيام بما يفعله الآخرون الذي يحاصرون عزلته: أن يتكلم بهدوء، وبراحة أعصاب ثابتة، وأن يتجهم ويبتسم ويضحك برصانة أخّاذة، وأن يعرف بشرًا كثيرين، وأن يعيش في أماكن رائعة، وأن ينظّم خطواته على نحو يحميه من الندم، وأن يبتكر دعابات تاريخية تتيح لذكرياته ـ على الأقل ـ أن تهيمن على مدينته؛ لم يُعلّم طفلته الصغيرة كيف ترسمه بعد الموت جالسًا بين المرأة والرجل فوق الأرجوحة، بل رسم نفسه أولًا على هيئة طائر هزيل، يحاول الخروج من اللوحة بعيدًا عن الأرجوحة المحاطة بالأشجار والزهور بينما تنعكس صورة هروبه فوق سطح البحيرة .. كانت تبدو السماء في اللوحة مع محاولة انفلاته كأنما تحوّلت إلى سقف أزرق صلب، مزيّن بدوائر وخطوط بيضاء غير منتظمة .. علّم الولد الكبير جدًا ابنته الرسم، ثم طلب منها الاحتفاظ باللوحة القديمة، كي تُعيد بعد موته الطائر المحلّق، الذي ظل يحاول الخروج بعيدًا إلى النوم بين الرجل والمرأة المبتسمين فوق الأرجوحة، وأن تجعل أيديهما تحتضن جسده المنكمش.

فلاش باك لجناحين ناعمين

أخرج من بيتي في الظهيرة .. أتحرك من شارع جانبي إلى آخر حتى أصل إلى البوابة الخلفية لمحطة القطارات .. أسير أمامها نحو الرصيف المحاذي لمدرسة العائلة المقدسة .. أخطو تحت ما يشبه الحافة الممتدة، غير المستوية لبحر أخضر، أمواجه متفاوتة الارتفاع، يحتشد في ثباتها الغصون المتلاحمة للأشجار الكثيرة، وفروع النباتات المتشابكة بكثافة أوراقها، وتناثر زهورها الملونة، حيث يمكن تمييز رائحة الفل من اختلاط النسائم .. تغمر أطراف هذا البحر الأشبه بفردوس صغير سياجًا حديديًا يعلو جدران المدرسة، وتتدلّى عبر ثقوبه الواسعة نحو هواء الرصيف .. أمر تحت الكوبري السفلي ثم أعبر الطريق نحو بيت آخر .. ليس هناك أحد إلا الموتى .. أبي يقف أمام الدولاب المفتوح في حجرة النوم .. أمي بين البوتاجاز والحوض داخل المطبخ .. أختي جالسة على سريرنا أمام دولابها الصغير .. أخي الأكبر ممدد في حجرته .. أخي الآخر جالس بجوار شباك الصالون، وينظر إلى الشارع عبر الشق الضئيل بين ضلفتيه .. لو أردت أن أسمعهم الآن سأسمعهم .. لكنني ـ كالمعتاد ـ لا أتذكر كلماتهم الآن، ولهذا يتبدد الصوت غالبًا لصالح الوجه .. كأنني كنت أعيش مع مجموعة من الأبكام، لا يستطيعون التخاطب إلا بواسطة إشارات الأيدي وتعبيرات الملامح بالرغم من أن حيواتهم لم تمتلك بصمة لإثبات وجودها أقوى من الصراخ والنحيب .. كأنني كنت طفلا أصمًا لا يمكن لأذنيه أن تمررا إلى وعيه ماهية العذاب المتدفق طوال الوقت من أفواههم فظل معتمدًا حتى اللحظة الأخيرة على تأمل الوجوه ومراقبة انفعالاتها، وتتبع حركات الأذرع والأقدام .. فجأة يختفون ثم تطلب طفلتي أن أقف معها في الشرفة .. تضع قدمها اليمنى في الفتحة المربعة الكبيرة للسور ثم تستند على صلابته لترتفع قليلا بينما تضع قدمها اليسرى في الفتحة المربعة الكبيرة المجاورة للأولى .. حينما كنت أقوم بهذا الصعود القصير لمشاهدة العابرين، لم أكن أعلم أنه سيكون لي طفلة ستقف في نفس المكان بالضبط بعد أكثر من ثلاثين سنة .. كيف لطفل لا يزال مستكينًا داخل السنوات العشر الأولى من حياته أن يتخيل وهو جالس في الشرفة آخر النهار الشتائي بين أصص الريحان، وتحت فروع اللبلاب الغزيرة المثبّتة فوق الحائط أنه سيقف بجوار طفلته ذات لحظة ما في الموضع ذاته بعد أن يتلاشى كل شيء .. هنا يا حبيبتي كنت أقرأ القصص المصورة، وأحلم بالعيش في حصانتها، مرتديًا البيجامة الكستور بينما أنصت إلى صفير متواصل كنت أظنه لطيور غير مرئية، تخاطبني من وراء الغيوم حتى اكتشفت أنه لصاحب برج الحمام فوق سطح هذا البيت القديم، الذي ينادي أصدقائه ذوي الأجنحة الناعمة كي يعودوا إلى بيتهم العالي قبل الغروب .. هنا كان جسدي الصغير والمطر يحتض كل منهما الآخر .. كان الهواء البارد يجعلني والمطر كائنًا واحدًا داخل هذه الشرفة التي كانت على وشك أن تكون جزءًا من مدينة البط يا حبيبتي .. أما الآن فالصحراء المقيتة خلفي، يطبق ظلامها المرعب على كل حيز داخل الصالة والحجرات، ويمتد عبر الباب إلى السلالم المتهدمة التي مرت عليها جنازات هذا المنزل، واحدة تلو الأخرى، ولم يعد لفضائها الصامت هوية سوى الرائحة المريرة للموت، بكل ثقلها السافل، الذي يعصر قلبي ويطحن عظامي أثناء الطلوع والنزول .. منذ سنوات طويلة، لم يعد صعودي وهبوطي لهذه السلالم سوى تمرين على جنازتي .. الصحراء المقيتة خارج البيت .. في المدينة كلها .. في العالم الذي لم أجئ إليه سوى لأدفن طوال عمري داخل بقعة صغيرة من فراغه المعتم .. لم تعد الحياة بالنسبة لي سوى التظاهر بأنني لست ضائعًا في الظل الأسود الهائل للموت .. ابتعدت عن الأصدقاء، كي أمشي وحدي، أبحث في الأماكن القديمة عن نظرات

أمي .. ربما أجد عينيها في وجوه الفلاحات داخل السوق اللاتي كانت تبتاع منهن، أو فوق أبواب وحوائط ولافتات الدكاكين العتيقة التي كانت تقصدها، أو في الشرفات المتهالكة والخاوية للبيوت المقفلة على غبار النهايات التي كانت تخطو بين ابتساماتها .. أمشي وحدي في المدينة كوعاء للفناء، يحمل رماد عائلته كلها، يرتعش بالروائح المفاجئة للماضي التي تتعمّد الانبعاث عند مروره أمام مخابئها ثم تتلاشى في لمح البصر كي يتمادى سقوطه داخل الجحيم .. جسدي يواصل الاحتراق لتزداد تدريجيًا حمولة الرماد العائلي التي أحملها فتثقل خطواتي داخل هذه المدينة التي لا أعرفها .. أربعون سنة قضيتها كغريب تائه، إقامته محددة داخل هامش ضيق جدًا، ليس بمقدوره مغادرته، بل كان عليه أن يبقى مجمدًا ومنكمشاً في خفائه، ومتطلعًا إلى الحياة خارجه باستسلام تام للخوف الذي يمزق روحه بتمهّل شهواني .. الآن أفكر في المدينة كذكرى لم أعشها .. كخيال يمكن أن يعيد الحياة إلى هذا الرماد .. لكن النوافذ التي أتهاوى منها أثناء سيري، والشوارع التي تذبح بصري في كل التفاتة، وأعمدة الإنارة التي تمضغ قدميّ المرتجفتين؛ جميعها ترسّخ وعدًا أزليًا بأنها لن يمكن أن تستجيب لأحلامي التي أرى فيها المدينة كما يجدر أن تكون خارج كل هذا الضجر الغليظ الصدئ .. كأنني أفتش منذ أربعين عامًا داخل هذه الشوارع عن لقاء لا أتذكر من الذي الذي أعطاني موعدًا له، وما الذي يمكن أن يحدث عندما يتم.

جميعهم يعرفونني .. المقيمون وراء الشبابيك، والجالسون في المحلات، والعابرون في الطرق تحت المصابيح جميعهم يدركون سري .. ينظرون في عينيّ حينما أمر بينهم كأنهم يعلمون أن معي حصيلة كبيرة من الرماد، يضيف المحترق من جسدي إليها وزنًا إضافيًا طوال الوقت، وأنني أكابد عناءً في حملها لم أعد أطيقه .. يعلمون أنني لا أستطيع نثر هذا الرماد خارج قلبي، ولا أستطيع تشكيله مرة أخرى كأبوين وثلاثة إخوة وجدة وقطتين وسلحفاة واحدة .. يعلمون أن هذا الرماد هو كل ما تبقى لي من العالم، وأنني فارغ تمامًا من دونه .. جميعهم يسمعونني دون أن أتكلم .. يقرأون في وجهي الصوت المتوسل الذي أخاطبهم به وهم يدهسونني: أيتها الأشباح التي تفيض المدينة بأجسادها العفنة .. يا من تتضاجعون، وتنتحرون، وتغتصبون، وتقتلون بعضكم البعض في كل لحظة بين الجدران وخارجها .. لا أريد أن أسمع الكلمات القديمة .. لا أريد أن أرى المزيد من نفس الصور .. لا أريد أن يكون لكم وجود هنا .. أنا آلة المحو المعطلة، وأنتم لستم أكثر من عبء بشع على ذكرياتي .. مسوخ بالية تجثم على خيالي المحتضر .. لستم سوى الكراهية في ذاتها التي تسجن أحلامي .. أنا الذي تسحقونه تحت بلادتكم البغيضة، ولا يستطيع أن ينطق، لكنكم لا تدرون شيئًا عن استمتاعه العظيم بشقائكم .. تلذذه الطفولي بالمصائب التي تلتهم غفلتكم .. كل ما أتمناه أن أرى هلاككم جميعًا قبل موتي .. لا أرجو أكثر من أن تتبخروا دفعة واحدة في صمت محكم.

السيارات والدراجات النارية تتقاذفني بأعاصيرها الهائجة، التي تتفجر في كل الاتجاهات .. يرتجل الجالسون وراء عجلات القيادة، والراكبون خلف مقاود الموتوسيكلات مقطوعات متواصلة لموسيقى الخراب بالوقاحة اللائقة لاندفاعاتهم العاتية .. يتبادلون ارتباكي الفزع .. يقلصون المساحات إلى أقصى حد ممكن أمام خطواتي المذعورة .. يحاصرونني بالتهديد الثمل، المتلاحق في كل لحظة فأبلع الشتائم التي لا يمكنها أن تلحق بالضجيج اللامبالي لعبورهم الخاطف الذي يواصل الاعتداء على كل فراغ حولي .. أرى الخيوط التي تحركهم النازلة من السماء .. أسمع حركة أمعاء المايسترو الذي يلهو بالمسارات الفوضوية لعمائهم الدنيء .. أشم

الرائحة الكريهة لانسجامه المطمئن مع إيقاع الماكينات المارقة .. أنا أشيخ مُقطّعًا في انتظار وقفة واحدة داخل الموسيقى الهادرة .. وقفة قصيرة واحدة فقط .. ربما أتمكن ـ بكل ما أحمله من رماد ـ من الطيران إلى هذا البيت العالي قبل الغروب.

إنهاء الدعابة

يطلب صديقي أن أصحبه لشراء تذكارات فرعونية لمعارفه الذين سيعود إليهم في بلد آخر .. أتوجه به إلى الشارع القديم الذي لا أمشي فيه إلا نادرًا .. لا أعرف أحدًا هناك، كما أنني لم أحصل بعد ـ رغم أربعين سنة في هذه المدينة ـ على من يمكنه معاونتي في التنقيب داخل تاريخه .. ندخل أحد المحلات العتيقة حيث يجلس صاحبه العجوز نصف نائم عند عتبته .. تشرق تجاعيده المتهدلة بإنهاك، كمن أبصر فجأة بعد عمر طويل في الظلام نقطة ضوء شاحبة .. يسرع بإيقاظ الوجوه والأجساد الصغيرة المدفونة تحت غبار الأرفف من سباتها العميق، وينزع عنها أغطيتها البلاستيكية ليجبرها على اتخاذ الوضعيات المثالية أمام عيوننا فوق السطح الزجاجي المنخفض للفاترينة الأمامية .. يتفحص صديقي ما تقدمه اليدان المرتعشتان للمحفظة المستقرة في جيبه الخلفي .. يسألني عن رأيي في كل قطعة .. يمر الوقت وأنا أتأمل النظرة المترجية المحاصرة بالغضون في وجه العجوز .. أفكر في أنه مثل الجميع هنا أو في أي مكان آخر؛ سيرفض التحدث معي لو حاولت سؤاله عن الجرائم، والأسرار المثيرة، والأحداث الغامضة التي جرت في الماضي داخل هذا الشارع .. لكنني أعترف أيضًا بأن طبيعتي تجد في محاولة التقرّب من الغرباء ـ مهما كان الغرض ـ كابوسًا غير محتمل .. هذا ما أبقاني منذ أربعين سنة وحتى الآن في بيتي، أعيش حياة من الانتظار الدائم، متوسلا لتحقق صدف أو بالأحرى معجزات مستحيلة لا تطالبني باتخاذ الخطوة الأولى .. يسأل صديقي عن الخامات، ويفاضل بين الهدايا، ويتفاوض حول الأثمان، مستعرضًا ذكرياته عن شراء أشياء مماثلة بأسعار أقل.

أتسلل من أمام الفاترينة الزجاجية نحو الداخل، ثم أتوجه إلى الرفوف العالية وراء العجوز .. أبدأ في تسلقها حتى أصل إلى ذلك الرف الغارق في التراب، والذي لا يحوي أكثر من دفتر قديم استنتجت من وجوده بجوار الهاتف المعطّل، ذي الطراز العتيق أنه مغلق على أرقام تليفونات لم يتصل بها أحد منذ سنوات بعيدة .. أتكوّم منتشيًا هناك .. بين الدفتر والهاتف، كاتمًا السُعال الناجم عن تنفسي للغبار الكثيف، كي لا أثير الانتباه .. أُدخِل يدي تحت ملابسي ثم أبدأ في الاستمناء مراقبًا التأثيرات المتعاقبة لاختفائي المفاجئ، في انتظار اللحظة المناسبة كي أتحرّك إلى هذا الرف العالي الذي يحمل تلك القطعة الفرعونية الثقيلة فأزحزحها قليلا لتسقط عندما يكون رأس العجوز أسفلها.

الأريكة القديمة

شعر فجأة بما يشبه احتراقًا خفيفًا في أطراف أصابع يديه .. نظر إليها .. رأى قشرة الجلد الرقيقة المحيطة بطرف كل إصبع قد تآكلت كاشفة عن طبقة أخرى أشد احمرارًا، كأنها الحاجز الهش والأخير قبل تدفق الدماء .. كان يجب أن يشعر بالفزع، أو على الأقل بالحدة القصوى من الدهشة، لكن استعادته لذكرى قريبة جدًا لم تسمح بذلك .. هذه ليست علة جسدية .. هكذا قرر مواصلا تأمل أطراف أصابعه المسلوخة، ومنتبهًا أيضًا إلى عدم ثبات التآكل .. كانت الحواف التي تفصل الجلد السليم عن الجلد المتسلخ آخذة في التقدم لالتهام بقية اليدين على نحو غير ملحوظ ولكنه مدرك تمامًا بالنسبة له.

أنت عائد للتو من أحد الأندية الأدبية التي استضافتك للتحدث عن أعمالك، وللإجابة عن أسئلة الحاضرين .. سألتك واحدة من القارئات عن الكيفية التي كتبت بها قصة "الغيب"، أي عن هذا الشخص الوحيد الذي يجلس فوق أريكة قديمة، ويتكلم مع كائن آخر غير مرئي .. صمت قليلا ثم أخذت تشرح كأنما كان عليك أن تختار إحدى البدايات المتاحة والخاطئة جميعها للتفسير، ثم تحاول دون فرصة للتراجع استدراك هذه البداية بمزيد متفاقم من الأخطاء .. عندما انتهيت أحسست بشكل مبهم أنك ستدفع ثمنًا لهذا بعد أن تعود إلى البيت وتكون وحدك، وها أنت الآن تراقب العقاب المستمر في التمدد .. حسنًا .. ما الذي ينبغي أن تفعله حالا؟ .. عليك ببساطة أن تكتب هذه القصة التي توثق اعترافك من جهة، وتطهّر القصة الأصلية من جانب آخر .. ألم أقل لك؟ .. بينما تتعاقب الكلمات والعبارات فوق هذا الفراغ الأبيض تبدأ أطراف أصابعك في التخلص التدريجي من الشعور بالاحتراق الخفيف مع عودة قشرة الجلد الرقيقة المحيطة بطرف كل إصبع للنمو حتى تكتمل ثانية .. كان يجب أن تفعل هذا؛ فأنت تعرف جيدًا أن الأريكة القديمة تزداد تهالكًا لحظة بعد أخرى، وأن خوفك من الجلوس عليها ملتصقًا بأحد المسندين قد تمادى لدرجة أنك أصبحت تتحاشى مجرد النظر إليها، وأن الكائن الآخر غير المرئي لا يزال جالسًا ملتصقًا بالمسند الثاني، وتزداد ضحكاته قوة لحظة بعد أخرى.

بطوط

كنت أستقل واحدًا من القطارات الذي وصف اصطدامه بقطار آخر ـ كما يحدث عادة ـ بالحادث المروع .. لم أكن ضمن الجثث أو المصابين، وبالتأكيد لم أكن من الناجين الذين عادوا إلى بيوتهم .. أنا فقط اختفيت .. أصبحت أحد المفقودين الذين لم يُعثر لهم على أثر رغم عدم الشك مطلقًا في وجودهم داخل القطار لحظة الاصطدام .. لم يكن الاختفاء في نيتي؛ فقد ركبت القطار مثل الجميع كي أسافر من مدينة إلى مدينة أخرى، ومن أجل غرض مشابه لكافة الغايات المنطقية التي يتحرك بسببها البشر من مكان لآخر .. لكنني الآن أدركت أن حياتي السابقة كانت تجهيزًا لهذا الاختفاء.

انتقلت إلى عالم لا يمكنني وصف طبيعته أو الكيفية التي أعيش بها داخله برفقة أفراد وجماعات لا حصر لهم من المفقودين في حوادث سابقة، وقع بعضها قبل أن أولد .. كل ما يمكنني قوله إنه عالم ـ وهذا بديهي ـ ليس بوسع الذين خارجه أن يروه، ولا يملك الشخص الذي ينتمي إليه القدرة على الإفصاح عن وجوده أو العودة إلى حالته المعلنة .. أدركت أن اختفائي سيكون أبديًا، ولم أشعر بالألم تجاه هذه الحقيقة؛ إذ أن هذا العالم لا يكاد يختلف عن ذلك الذي غادرته عند اصطدام القطارين. مازلت أعرّف نفسي بذلك اليقين الصلب، الذي لم يتغيّر طوال الماضي بأنني شخص يشعر ويفكر ويتصرّف في الحياة وفقًا لإرادة لا تخصه. أن كافة الأحاسيس والانفعالات والتصورات والظنون والقرارات التي يتخذها لكلماته وأفعاله تتم بمشيئة قوة مطلقة، لا يستطيع تحديدها، تفرض على جسده أن يعيش على نحو معين، كما أنها تجبره أيضًا على الاعتقاد بامتلاكه لذات مستقلة، منفصلة عن أي سلطة خارجها .. كنت أصدق أحيانًا ـ مثل الجميع ـ هذه الخدعة القهرية، وأتغافل بثقة عمياء عن هذا التأكد، لكن دائمًا كان بوسعي استرداده في أي لحظة .. داخل هذا العالم الخفي الذي انتقلت إليه، مازال لدي هذا اليقين، ولكن لم يعد هناك مجال لنسيانه، كما أن جسدي أصبح أكثر استيعابًا لهويته الأصلية .. أنا أداة .. وسيلة لتنفيذ أمر .. وبالرغم من أنني لم أتعرّف بعد على هذه القوة المطلقة إلا أن دوافعها التي تُشكل نفسي وتحرّك خطواتي صارت مكشوفة كليًا .. أدركت أن اختفائي الأبدي سيعني الرجوع إلى الحياة التي تركتها محتفظًا بحالتي غير المرئية، ولفترات مؤقتة بقدر الزمن المناسب لإنجاز المهام التي أُكلف بتنفيذها قبل العودة إلى العالم المتواري الذي أصبحت ابنًا له. أرجع إلى الحياة التي كانت آخر لحظاتي فيها هي اصطدام قطارين، ثم العودة إلى الخفاء بعد أن أكون قد تركت الموت والخراب في مكان ما. هذا ما كنت أقوم به في الماضي قبل الحادث، ولكن بشكل مراوغ ومبهم، أما الآن فأؤديه بطريقة واضحة ومفهومة تمامًا .. مع ذلك فإنني لا أقتل أو أحرق أو أهدم بشكل عشوائي، مجردًا من التمييز، بل لابد أن يكون عملي مقترنًا بلحظة سعادة لأولئك الذين على وشك أن يكونوا موتى عاديين، أو جثثًا متفحمة، أو أبدانًا مسحوقة تحت الأنقاض .. لابد أن يكون القتل هو النغمة الأخيرة في متعة جنسية سأتمكن من رؤيتها بفضل اختفائي .. لابد أن يكون الخراب هو الإيقاع الختامي لمضاجعة سأتلذذ بمراقبتها دون يشعر بي أحد، وسأكون الوحيد الذي يصل إلى الأورجازم من خلالها .. أصبحت أمرر الموت المفاجئ عبر الأسرار المكتومة في الفراغ المحيط باختلاسات النظر، وإغماضات العيون، وتلاحق الأنفاس لكل جسد يحاول بعريه أن يحمي ظلامه الشخصي من عري الآخر.

لا أعرف هل كان وقوع الحادث بعد ثلاثة أيام فقط من بلوغي الأربعين مجرد صدفة، أم ينطوي على معنى؟ .. شخص ما ـ لعله باسكال ـ قال إن من بلغ الأربعين ولم يكره البشر فكأنه لم يعرفهم .. أظن أن الأمور قد سارت على نحو منطقي إذن، ليس به أثر للصدفة .. قبل ثلاث سنوات قطعت علاقاتي بأصدقائي، وتوقفت عن الخروج من البيت إلا نادرًا بعدما أصبحت غير قادر على الاستمرار في توزيع عاهاتي الثابتة على الآخرين، والتي لم تتوقف عن النمو منذ عام 1977 .. أردت أن ينسحب من ذاكرة البشر ـ لو كان هذا ممكنًا ـ ذلك الرجل المرتبك، المتلعثم، الغافل، مدعي القوة والمكر واللامبالاة، المضحك، والتائه .. الذي تتدافع الثرثرة التافهة من بين شفتيه أمام الناس عن حياته وماضيه، مستعرضًا تفوقه المبهر، ومزاياه العجيبة، وقدراته الخارقة طمعًا في التقدير والخلود وتصفية دماء الوجوه المبتسمة التي تحاصره بالضحكات المكتومة، وتوسلا للغيب أن يعتبر هذه الانفعالات الواثقة، المسكينة التي ورثها من أسرته قربانًا ملائمًا لمنحه الرحمة .. لم تعد لدي أدنى طاقة لتحمّل الفضح المتواصل لنفسي، الذي لم يكف أبدًا عن تحويل أسراري الثمينة إلى سخافات مبتذلة، تُقطّع وتتداول بين أيدي كل الذين يريدونني أن أكون مثلهم أو أقل .. حينما يطلب منك شخص ما أن تحدثه عن إحدى قصصك القصيرة مثلا، خصوصا لو أن هذا الشخص تعذبه الفجوة العسيرة الهائلة التي تُجبره على أن يرفع عينيه لأعلى حينما يتحدث إليك، فإن قصتك بمجرد أن تبدأ في الكلام ستشبه قصته بعد أن أزلت الرهبة الغامضة بيديك، وساعدته مؤقتًا على الانتقام منك .. لهذا حاولت أن أعيش في وادٍ بعيد، يحمي موتي من المهانة، وهو ما جعلني في السنوات الثلاث الأخيرة أجرب سعادة مختلفة، لم أعشها من قبل، نتيجة غياب الأصدقاء من حياتي .. أصبحت أكثر تناغمًا مع عزلتي، وأكثر تصالحًا وانسجامًا مع الماضي، بل يمكنني القول ـ مهما كانت غرابة ذلك ـ أنني وصلت قبل اصطدام القطارين إلى درجة من التفاؤل بما يمكنني تحقيقه في المستقبل كنت أظن أنه من المستحيل أن أبلغها في هذا السن، وبعد كل ما جرى لي .. لاشك أن التأثير الناجح لهذا الانقطاع عن الآخرين كان سببًا جوهريًا لهذه السعادة؛ فقد تزايد الاهتمام والاحتفاء بكتاباتي، وانتشرت الاقتباسات من نصوصي في كل مكان، كما كثرت الكتابة عن أعمالي، وإعادة نشرها، فضلا عن التدفق الذي لا ينقطع لمخطوطات وإصدارات الآخرين إلى بريدي، والآملين في مراجعتي لها وتقديم النصائح، والكتابة عنها، وكذلك الدعوات المتواصلة لمناقشة الأعمال الأدبية في ندوات ومؤتمرات، ولتدوين وإلقاء الشهادات عن الكتابة، وللمساهمة في ملفات بالصحف والمجلات والمواقع، أو لكتابة مقالات ثابتة في مطبوعات ثقافية، أو للحوارات الصحفية والمقابلات الإذاعية والتليفزيونية، إلى جانب ترجمة كتاباتي، وتحويل قصصي إلى أفلام قصيرة، وحصولي على جوائز، مع العروض التي تقدمها دور النشر لإصدار كتبي .. أما حالة الهوس العام التي بدأت منذ سنوات طويلة على الإنترنت بهذا المقطع من قصيدة "عنكبوت مسكين يقيس زاوية الحائط".

لا تخف

ليس معنى الوقوف في النافذة

أنك ستسقط

ليس معنى السعال

أنك مصاب بالسرطان

ليس معنى ضيق التنفس

أن قلبك به شريان مسدود

الحياة فقط هي التي معناها

أنك ستموت.

هذا الهوس العام مازال في تصاعد مستمر على مواقع التواصل الاجتماعي والمدونات والمنتديات والمواقع الأخرى، والذي جعل هذه الكلمات من أكثر الاقتباسات تداولاً على الإنترنت، إن لم تكن الأكثر شهرة. جموع بشرية هائلة تتزايد عبر الزمن في كل مكان بأعمار وجنسيات مختلفة يواصلون نشر هذا المقطع، ويضيفون إليه الصور واللوحات، ويستخدمونه كتوقيع يُعبّر عن وجودهم في العالم.

أستطيع بالتأكيد أن أزور عائلتي وأصدقائي ومعارفي السابقين دون أن يدركوا شيئًا عن حضوري بينهم .. الذين بحثوا عني في المستشفيات والمشارح ولم يجدوني، ثم نشروا صورتي في كافة الأماكن، وطال انتظارهم لعودتي دون جدوى .. لكن عائلتي وأصدقائي ومعارفي لا يزالون ضمن الحياة التي لدي عمل فيها؛ لذا سيكون لكل واحد منهم دوره بحسب المهمة التي سأكلف بتنفيذها .. حينما يأتي موعد أحدهم، لن أمنحه بالتأكيد معاملة خاصة؛ فهذا ليس في إمكاني، وإنما سيكون لدي القدرة أن أمنح نفسي هذه المعاملة الخاصة عند قتله في اللحظة التي يكون فيها عاريًا، وعلى وشك الوصول إلى ذروة النشوة.

فرضية المرح

قرب الفجر، وداخل ظلام الحجرة، وضع السماعتين في أذنيّ ثم احتضنني .. كان المطر ينهمر وراء ضلفتي البلكونة، وبابيها الخشبيين بألواحهما الزجاجية، وبالرغم من أن الأغنيات التي تمر من المسجّل الصغير تحت الوسادة لم تكن واضحة إلا أنني كنت أشعر بها على نحو لا يرتقي إليه الإنصات إلى أغنيات مفهومة .. كان باب الحجرة مفتوحًا بكامل اتساعه، وضوء النيون الأبيض الساطع في الصالة يُبقي الظلام حول السرير مستيقظًا .. كلما أراد تغيير وجه الشريط، أو الانتقال من أغنية إلى أغنية أخرى ليست تالية لها، أو تبديل الشريط نفسه بواحدٍ آخر من الشرائط المستلقية أعلى الوسادة؛ كان يربت على ظهري برفق فأُبعد جسدي الضئيل قليلا عن حضنه .. يخرج المسجّل من تحت الوسادة، والسماعتان لا تزالان في أذنيّ بينما أظل مستندًا على يديّ الصغيرتين في انتظار احتواء ذراعيه لي مجددًا تحت الأغطية الدافئة، كي أواصل الاستماع إلى الأغنيات .. خلال هذه اللحظات القصيرة المتقطّعة أتأمل وجهه .. ملامح الأربعين سنة، الخالية من أي شيء عدا انهماكه الثابت في تنظيم الأغنيات واحتضاني داخل السكون .. كان إغماض عينيّ بين ذراعيه لا يعني النوم، وإنما الانكماش فيما بين الإغفاء واليقظة .. لم يكن الوقت يمر .. كان يدور في مكانه بين نهاية الليل والظلام والأغنيات والمطر وضوء الصالة وروحي ذات السبعة أعوام، وطفلتي النائمة بجواري .. فتحت عينيّ .. وجدته يقف أمام السرير وقد أضاء الحجرة بالنور النيون الأبيض الذي يماثل ضوء الصالة في سطوعه .. كان قد أغرق أرضية الحجرة تمامًا بالماء، ثم أمسك بسلك كهربائي طويل ممتد من المقبس في الحائط المجاور للباب، وعلى وشك أن يغمس طرفه العاري في البحيرة الصغيرة التي يقف داخلها .. سألته عما يفعله، فأجابني بأنه قرر قتل نفسه الآن .. انتفضت ضاحكًا بفزع، ثم اندفعت بضآلة جسدي من السرير حاملا طفلتي النائمة إلى خارج الحجرة وأنا أخبره بأنني مدرك تمامًا أنه يمزح، ولكنني لابد أن آخذ حذري .. ظل واقفًا في منتصف الماء، ممسكًا بالسلك الكهربائي الذي يلمع طرفه العاري كنصلٍ شبق .. عبرت الصالة بأقصى سرعة نحو المطبخ لأغلق بابه على ارتجافي الذي لم ينجح ـ رغم قوته ـ في إيقاظ طفلتي التي أحملها .. سمعته يناديني بنبرة الدعابة المألوفة، ويطلب مني الخروج، مؤكدًا أنه كان يمزح بالفعل .. فتحت باب المطبخ ثم احتضنت طفلتي بيد واحدة لأمسك المقشة بيدي الأخرى وأندفع بها إلى حيث يقف في الصالة .. ظل يجري أمامي في كل اتجاه، هربًا من الضربة المحتملة، وأنا أحاول اللحاق به، دون أن تنقطع ضحكاتنا حتى فُتح باب حجرة أمي وأبي، ورأيتهما يخرجان بملامح ناعسة، ثم تتسمّر أقدامهما، وتتسع عيونهما، وهما يشيران إلى ذلك الذي مازلت أطارده بالمقشة، حاملا طفلتي، ويرددان برعب مذهول: "من هذا؟ .. من هذا؟".

كأجنحة مروحة

توقف أمامي طفل صغير، وسألني عن الوقت .. نظرت في ساعة يدي، وأجبته بما تُشير إليه بدقة .. عاود الطفل السير، ثم اكتشفت عجوزًا يقف قريبًا مني .. نظر في عينيّ وقال: "ساعتك خاطئة" .. أشاح وجهه، وراح يبتعد بخطوات بطيئة .. عاودت التطلع في ساعة يدي .. وجدت العقارب تدور بسرعة شديدة كأجنحة مروحة .. رفعت عينيّ لأتمعّن في يدي العجوز .. لم تكن هناك أية ساعة.

التلصص

يرن جرس الباب .. أنظر من العين السحرية فأجد شابًا وفتاة يقبلان بعضهما .. أتصوّر لوهلة أنني وصلت إلى مرحلة الهلاوس، لكن الفتاة التي تحمل أوراقًا وقلمًا تُبعد شفتيها عن فم الشاب ثم تومئ بقلق نحو الباب .. ترفع يدها وترن الجرس مجددًا .. ينتظر الشاب الذي يحمل "تابلت" للحظات ثم يمد يده ويقرص ثديها الأيسر من فوق البلوزة .. ترتسم صرخة صامتة على وجهها وهي تتراجع بفزع سنتيمترات قليلة، قبل أن ترفع إصبعها الصغير لتحذره بابتسامة لائمة .. أسمع الشاب يقول لها بسرور شبق: "الظاهر محدش هنا".

يعطيا ظهريهما للباب .. يمد يده ويمسك مؤخرتها فتُبعدها كف الفتاة بطريقة "كفاية مش وقته" .. ترفع يدها وتضغط جرس الشقة المقابلة .. يفتح جاري الباب لهما .. أسمع الفتاة تقول له:

"مساء الخير يا فندم .. إحنا مندوبين التعداد السكاني، وكنا عايزين ناخد شوية بيانات من حضرتك".

أوقن بأن الشاب ينتظر بفارغ الصبر الانتهاء من تدوين المعلومات التي يبلغهما جاري بها عن أسرته كي يتمكن أثناء انصرافهما من اختلاس قبلة أو لمسة أو قرصة أخرى من جسد الفتاة .. يغلق جاري باب شقته .. تتحرك الفتاة لتنزل السلالم نحو المساحة الصغيرة التي تفصل بينها والسلالم الأخرى المؤدية للدور التالي .. يتبعها الشاب الملاصق لظهرها بلهفة سعيدة .. يتوقفان هناك .. لكنني لم أعد أرى سوى جزء تافه من ظهر الفتاة في أقصى زاوية العين السحرية .. يتقدم هذا الجزء نحو مركز العين بشكل طفيف جدًا عندما يميل جسد الفتاة للخلف ثم يعود فورًا إلى وضعيته السابقة قبل اكتمال المشهد .. أستنتج أنهما يقبلان بعضهما الآن قبلة طويلة داخل هذا الركن المنزوي من السلالم، وأن يد الشاب ربما تحاول أن تسرق أقصى ما تستطيع من الأسرار الناعمة قبل انتهاء هذه اللحظات .. يختفي ظهر الفتاة بالكامل، ثم أسمع صوت أقدامهما وهي تنزل السلالم ليعود السكون تدريجيًا.

أتحرّك من وراء الباب .. أجلس فوق كرسي الصالة مرتجفًا .. أحاول وضع رأسي الدائخ بين كفيّ، لكن دقات قلبي القوية والمتلاحقة تمنعني من الثبات .. أنهض، ثم أدور بأنفاس مختنقة حول نفسي، غير قادر على الوصول إلى حل مضمون .. كانت زوجتي داخل حجرة النوم، ممددة فوق السرير، والدماء تواصل التدفق من قلبها حيث السكين التي تحمل بصماتي لا تزال مغمدة داخله.

النظر إلى المسيح

ها أنا أكتب عنكِ مرة أخرى، وهذا ما يجعلني مترددًا في استخدام نفس المعرفة التي تعوّدت أن أُشكّلك من خلالها في كل قصة، رغم أنني أدرك جيدًا أن البحث عن بدائل لها ليس أكثر من مضيعة للوقت .. هل تتصورين؛ فكّرت أن أطلب من القارئ أن يعود إلى قصصي السابقة التي كتبتها عنكِ للتعرّف على هويتك التي لم تتغير، تفاديًا للتكرار .. مر هذا الخاطر في ذهني أولا كدعابة ثم تحوّل بالتدريج، وبلذة من سحر الاكتشاف إلى فكرة جادة، بل وإلى أكثر الحلول نباهة وحسمًا لهذا المأزق البسيط .. على هذا يمكنك ـ عزيزي القارئ ـ الرجوع إلى قصص "شعيرات بيضاء"، "اللعب بالفقاعات"، "قتل فرويد"، "القيمة الروحية"، "الحجرة التي بجوار سليمان الصايغ"، و"Xvideos"، إذا ما أردت أن تلمس وجه المرأة التي أخاطبها الآن .. ربما عليك أن تفكر أيضًا في أن هذا ليس إلا حجة خبيثة كي أحرّضك على العودة إلى هذه القصص.

هل تتذكرين ليلة أن علّقت لوحة صلب المسيح فوق حائط الصالون؟ .. ناديتِ أمكِ كي تشاركك إشباع حاجتك للثأر بالصراخ في وجهي بعد ارتكابي هذا الإثم البشع الذي انتهك قداسة بيت مسلم .. لحظتها قررت السخرية منكما، ورفضت إزالة اللوحة من فوق الحائط إلا إذا قلتما لي ما هي دلالة الزاوية العلوية التي رسم سلفادور دالي المسيح منها .. تركتما الحجرة كطفلتين نزقتين، تحاولان ملأ هواء العالم باللعنات المحذرة من الانتقام الإلهي، بينما ظلت ضحكاتي تودعكما، وتبارك دماءكما المشتعلة، قبل أن تغلق الباب وراءكما، وبقي المسيح مصلوبًا فوق الحائط.

هل تتذكرين؟ .. في اليوم التالي جاءت إبنة خالة أمكِ لزيارتكما، وبمجرد عبورها من باب الشقة، وقبل أن تُكمل الطريق نحو حجرة المعيشة طلبتِ منها دخول الصالون، ثم أضأتِ مصابيح النجفة الساطعة، وقلتِ لها بابتسامة متعالية، ونبرة مُحاضِر في تاريخ الفن:

"أنظري إلى هذه اللوحة .. هل ترين كيف يبدو المسيح المصلوب؟ .. هل تعرفين لماذا اختار الرسّام هذه الزاوية لرسمه؟ .. هذه الزاوية لها معنى عميق جدًا".

ثم خرجتِ بها من الصالون، بعد أن ظلت المرأة تهز رأسها في صمت مذهول ومتوجس، وذهبتما إلى حجرة المعيشة، دون أن تعرفي أنني كنت واقفًا وراء ستارة المطبخ التي تكشف المشهد بأكمله؛ أشاهد وأستمع، ويكاد يُغشى عليّ من الضحك الذي أحاول كتمانه بعناءٍ هائل .. بعد مغادرة قريبتنا دخلتِ مع أمكِ إلى حجرة الصالون، لتطلبا مني ثانية إزالة اللوحة بنفس الصرخات واللعنات المحذرة، لكنني ظللت متمسكًا بأن تخبراني أولاً بـ "المعنى العميق" للزاوية التي رسم دالي المسيح منها.

هل تصدقين؟! .. مرت عشرون سنة .. صرنا عجوزين بفارق سبعة عشر عامًا بين يومي ميلاد كلٍ منا .. لم أعد أعيش هنا منذ زمن طويل في حين بقيتِ أنتِ وحدكِ .. أخذت معي إلى البيت الآخر لوحة المسيح، ولكنني لم أعلقها .. وضعتها داخل أحد الصناديق الكارتونية التي لا أفتحها إلا نادرًا .. في نفس مكانها على حائط الصالون عُلقَت صور أبوينا وشقيقينا بترتيب موتهم .. أزورك مرة واحدة في الأسبوع، ومع ذلك لا نجد كلامًا نقوله .. نتبادل أحيانًا حصيلة فقيرة من الحكايات المروّضة، ندعي أنها "آخر أخبارنا" .. نستعيد الذكريات الحذرة، التي لا تنتمي إلى

حروبنا القديمة أحيانًا أخرى .. لكننا نظل صامتين معظم الوقت .. أنا أفكر في الصورة الجديدة التي ستضاف إلى حائط الصالون، بينما مازلتِ تفكرين في دلالة الزاوية العلوية التي رسم سلفادور دالي المسيح منها.

وأنا أتحدث إليك

كان يجب أن يكون عجوزًا مشردًا مثلا، يهيم في الشوارع كخلاصة مزعجة لقذارة العالم .. لكنه للأسف لم يكن كذلك .. كان يمتلك مظهرًا مناقضًا تمامًا، ولا شك أن هذا الاعتداء كان أشد عنفًا تجاه البشر مما لو كانوا يشاهدونه بشعر أشعث، وعينين زائغتين، ووجه نحيف، نحتت الأوساخ المتراكمة عبر الزمن خمود ملامحه، ولحية كثيفة بيضاء، وثياب رثة .. الخصائص التقليدية الحاسمة التي يفتقدها، والتي غالبًا ما تثير استجابات روتينية أقل كلفة: ابتسامة السخرية التي تتطور أحيانًا إلى ضحك، أو تترجم إلى كلمات .. الإشاحة العفوية للوجه، الذي درّبه التعوّد جيدًا على عدم الاهتمام .. الشفقة الطارئة كفقاعة تتبدد مع نهاية النظرة .. كيف لرجل مثله، لا يزال في الحقبة الشابة من منتصف العمر، شعره الناعم مصفوف بعناية فائقة، ولديه عينان متزنتان، ووجه أبيض بخدين ممتلئين ومنعّمين، ويرتدي ملابس أنيقة، كما يشع من نظافته المثالية عطر أخّاذ؛ كيف له أن يمشي في الشوارع ويكلّم شخصًا غير موجود؟! .. كيف لرجل مثله أن يسير بين الناس كأنه برفقة صديق؛ يحكي له، ويضحك معه، ويقف في بعض الأحيان ليشير بيده السمينة إلى أماكن متوهمة، ويقول له مثلا:

"أنظر .. لا يزال المقهى كما هو، وإن أصبح زبائنه أقل بكثير بعد أن أطلق صاحبه لحيته، ومنع الشيشة والطاولة والدومينو .. أنت تعرف أن حالته العقلية كانت مهيأة لذلك منذ زمن طويل "يضحك" .. لكن كما ترى؛ دكان الترزي بجوار المقهى لم يعد كذلك بعد أن مات الأب، وقرر الإبن تحويله إلى سوبر ماركت .. بالمناسبة .. هل تعرف شيئًا عن ابن مالك مخزن الأخشاب المغلق هذا؟ .. ألم يدخل المصحة للعلاج من الإدمان؟ .. هناك من يقول أنه لا يزال نزيلا فيها، وهناك من يقول أنه غادرها، ويستعد لتحويل المخزن إلى محل لبيع التحف والأنتيكات .. "يلتفت إلى الجهة المقابلة" .. أتذكر بائعة الفاكهة التي تسكن في هذه الحارة، والتي تجاوزت شهرتها حدود الشارع والمدينة أيضًا؟ .. لا أعرف ما الذي كان يجذبك إليها .. كانت دائمًا تصيبني بالغثيان .. تنقّلت صاحبتك من بيع الفاكهة إلى بيع الملابس المستعملة ثم إلى بيع البليلة والأرز باللبن، والآن تبيع السمك، ومازالت تؤكد حتى الآن أنها توقفت عن بيع الحب ..."؟!

يعاود المشي بخطوات مائلة على نحو طفيف للداخل، كأن جسده يريد أن يُشكّل مع جسد الصديق غير المرئي قوسين لاحتواء الكلام والضحك بينهما .. يحدّق الناس فيه بدهشة واجمة .. يجبر الاستغراب العابس بعضهم على التوقف .. على محاولة استدعاء الابتسامات المألوفة .. لكن لا شيء سوى ثقل الحسرة .. الشفقة المتوجسة التي تحرّك الأقدام بعيدًا فيما يشبه النزاع بين إلحاح الهروب، والرغبة في الانتظار ومواصلة التمعّن رجاءً لمعرفة نهاية ما للمشهد .. لكن لا أحد في الحقيقة يبلغ هذه المرحلة .. لا أحد يواصل تتبع الرجل حتى النقطة الأخيرة في الرحلة اليومية، أو ما تبدو ظاهريًا كذلك .. فالرجل يتوقف فجأة عن كل ما يفعله ثم يبدأ في المشي كشخص وحيد، ليس برفقته أحد، وبسرعة الخطو غير المتمهل، اللائقة بهذه الفردية غير المتوقعة .. في هذه اللحظة تموت أي فكرة للاستمرار في المراقبة .. فقط يزداد الطغيان الحاد للتعجب .. يصبح أكثر وحشة وإرباكًا نتيجة تحوّل يبدو هزليًا أو منطويًا على خدعة ما بهذا

الاسترداد المباغت للعقلانية .. كيف لرجل مثله ظل يخاطب شخصًا خياليًا ويضحك معه أن يصبح إنسانًا سليم الإدراك فجأة، وأن يمشي صامتًا كما يلزم المنطق؟!.

لكنك تستطيع أن تعرف الحقيقة لو تغاضيت قليلًا عن سير الرجل وحيدًا، وانتبهت إلى الأسى المكتوم في ملامحه أثناء مشيه الصامت، مطرق الرأس، بسرعة العائد من لقاء .. تستطيع أن تعرف الحقيقة لو تصادف أن تكون بجواره حينما ينزل من بيته، وبما يكفي لأن تسمعه .. ذلك لأن الرجل بعد لحظات قليلة من خروجه إلى الشارع كل يوم يلتفت بشكل مباغت إلى هذا الشخص غير المرئي، ويقول له بعتاب متسامح: "هل يصح أن تتركني فجأة أمس وأنا أتحدث إليك؟".

السَفَر

في محطة الحافلات، وانتظارًا لاكتمال الركاب في المقاعد الشاغرة؛ تجلس الطفلة الصغيرة داخل الحافلة .. تتأمل عبر الشباك الزجاجي عجوزًا جالسة فوق رصيف المحطة وتبكي .. في عيني الطفلة استفهامات شاردة: لماذا تبكي هذه العجوز؟ .. هل أحزنها أحد؟ .. هل تحتاج إلى نقود؟ .. هل هي مريضة؟ .. هل تاهت؟ .. هل ضاع منها شيء؟ .. هل ستتوقف عن البكاء لو ربت شخص ما على كتفها الآن؟ .. هل من الممكن بعد قليل أن تصبح بخير؟ .. بجوار الطفلة الصغيرة يجلس رجل .. لا يتطلع إلى العجوز بقدر ما ينظر في عيني الطفلة اللتين تتأملان العجوز .. تنتبه الطفلة الصغيرة إلى نظرة الرجل إليها فتبتسم ثم تبعد وجهها لتثبّت عينيها للأمام بين العجوز وبينه .. يسمع الرجل صوت محرّك الحافلة يدور إشارةً لاكتمال الركاب في المقاعد الشاغرة .. شيء غامض وثقيل يتكوّن وينمو داخل الرجل، يريد أن يصعد إلى لسانه مع بدء تحرك الحافلة .. شيء يريده أن يطلب من السائق أن ينتظر.

إغماض العينين

يخرج من بيته .. يمر داخل محطة القطارات نحو الجهة الأخرى .. يتأمل العجوز الجالس بجوار كشك السجائر والحلويات والمياه الغازية فوق رصيف المحطة .. يُخرج موبايله ثم يكتب في "قائمة المهام": "العجوز صاحب الكشك في المحطة "ذكرياته"" .. يعيد الموبايل إلى جيبه .. يتمعن أثناء عبوره الميدان في الشبابيك المظلمة لبنسيون قديم مهجور .. يُخرج موبايله ثم يكتب: "بنسيون الميدان "معلومات"" .. يُعيد الموبايل إلى جيبه .. يفكر في أن هناك ملاحظات قد يؤجل تدوينها زمنًا طويلا لأسباب غامضة، ثم يسجلها فجأة دون مبرر واضح .. يقف للحظات أمام بائع الجرائد .. يلمح عددًا من مجلة "الشباب" يشير غلافه إلى حقبة التسعينيات مُلقى في زاوية مهملة وراء الكتب المصفوفة .. لا يشتريه، وإنما يقف على بُعد خطوات ليخرج موبايله ثم يكتب: "أرشيف مجلة "الشباب" فترة التسعينينات، خاصة السنوات الأولى" .. يعيد الموبايل إلى جيبه .. يستقل تاكسيًا .. يشاهد في الطريق واجهة المقهى اليوناني العتيق .. يُخرج موبايله ثم يكتب: "تاريخ المقهى اليوناني، وتاريخ اليونانيين في المدينة، وجميع الجاليات الأجنبية" .. يُعيد الموبايل إلى جيبه .. يصل إلى المكتبة .. يستفسر عن كتاب .. لا يجده .. يتجوّل قليلا في الداخل .. يصادف مجموعة روايات "دان براون" .. يفكر في أنه يريد شراءها رغم امتلاكه نسخًا إلكترونية منها على "اللاب" .. يؤجل الشراء ويغادر المكتبة .. يقف في الشارع ليُخرج موبايله ثم يكتب: "تاريخ الأدب البوليسي" .. يُعيد الموبايل إلى جيبه .. يتذكر شيئًا فيخرجه ثانية، ويضيف: "وأدب الرعب والخيال العلمي أيضًا" .. يُعيد الموبايل إلى جيبه .. يفكر في أنه سبق أن دوّن هذه الملحوظة من قبل أكثر من مرة على مدار السنوات الماضية، ولكن لا بأس من تأكيدها .. يستقل تاكسيًا .. بعد دقائق تشير بنتان إلى السائق .. يتوقف فتسألاه عن مكان يقع في نفس الاتجاه .. تركبان في الخلف .. تتبادلان كلمات مقتضبة يفهم منها أنهما طالبتان جامعيتان، وأنهما عضوتان في فريق التمثيل بالكلية، وأنهما عائدتان للتو من بروفة مسرحية .. يُخرج موبايله ثم يكتب: "تاريخ المسرح الجامعي في المدينة" .. يُعيد الموبايل إلى جيبه .. يبتسم وهو يفكر في أن شخصًا آخر ما كان سيُخرج موبايله في هذه اللحظة إلا ليسجّل رقمي هاتفي البنتين، بعد أن نجح في استغلال حديثهما للتعرّف عليهما ـ ككاتب مسرح مثلا ـ وتبادل الضحكات معهما .. ينزل من التاكسي .. لا ينظر إلى البنتين .. يدخل صالة الاستقبال بفندق ميدان المحطة .. يجلس كعادته بجوار النافذة الزجاجية الكبيرة .. يشاهد رجلا خليجيًا جالسًا على طاولة قريبة .. يتلفت بحثًا عن الوجوه المألوفة لسماسرة المتعة .. يلمح أحدهم واقفًا في قاعة الطعام .. يُخرج موبايله ثم يكتب: "تاريخ الجنس العربي في فندق ميدان المحطة، خاصة في الثمانينيات والتسعينيات" .. يضع الموبايل أمامه فوق الطاولة .. يطلب "كابتشينو" ثم يراقب العابرين في الميدان عبر النافذة .. تلمع في ذهنه فكرة هذه القصة .. يلتقط موبايله ثم يكتب: "يخرج من بيته .. يمر داخل محطة القطارات نحو الجهة الأخرى" .. يعيد الموبايل إلى جيبه .. يُنهي فنجانه ثم يغادر الفندق ليرجع من نفس الطريق إلى المنزل.

كان يجب أن يكون هذا الليل أكثر نعومة، وأن يكون ما بين هذين الذراعين أكثر اتساعًا .. كان يجب على هاتين العينين أن تكونا وراء نظارة ذات عدستين سميكتين، وأن توجد حسنة سوداء صغيرة تحت إصبعي في هذه الذقن .. كان يجب أن يكون فيلم التليفزيون الذي أنصت ناعسًا لأصواته الآن هو "رحلة السندباد السابعة" .. لكنه لا يزال ليلا، وطفلتي الصغيرة لا تزال أمي

التي عادت في جسدها الجالس أمام التليفزيون لتحتضن رأسي .. كان يجب أن أستمر في إغماض عينيّ حتى أنام، ولكنني أفتحهما سريعًا؛ إذ يبدو كل شيء كأنما سيجعلها الإغماضة الأخيرة.

حفل الإرجاء

لم نكن نمتلك (طبقاً) يمرر للتليفزيون القديم بحجرة المعيشة تنويعات نقية من سكس العالم .. كمجنون سينمائي يحاول الاتصال بسكان الكواكب الأخرى قضيت سنوات طويلة، ليلة بعد الأخرى في السعي لاصطياد قنوات الـ (سيجما) القبرصية، والـ (أنتينا) اليونانية، والثانية الإسرائيلية، وكان هذا أقصى خدمة يمكن أن يؤديها (البوستر) لقضيبي .. بالطبع كان نادراً للغاية أن تجتمع عناصر المعجزة: التقاط أي من هذه القنوات مع وضوح الصورة بالتزامن مع عرض فيلم (uncut) .. أغلب السنوات قضيتها ممسكاً بقضيبي أمام شاشة مشوشة تماماً، تتحرك داخلها ظلال مطموسة انتظاراً لظهور إشارات لما يبدو أنه احتمال للحظة التصاق بين شبحين عاريين فأبدأ في الاستمناء .. كان يحدث أحياناً أن تتحسّن الصورة فجأة قبل وصولي إلى النشوة فأكتشف أن ما كنت أظنه مشهداً جنسياً لم يكن سوى منظر لطفل يحفر قبراً في حديقة بيته ليدفن قطته الميتة، أو رجل يقوم بتقطيع جثة امرأة مستخدماً منشار كهربائي، أو عجوز يعزف على البيانو مقطوعة ناعمة لـ (شوبان) فوق تلال هائلة من الأنقاض المحترقة .. كنت حينئذ أنقذ شهوتي من التراجع والانطفاء باستعادة فورية لجسد أم خطيبتي .. أؤمن حتى الآن أن مؤخرتها كانت تبتسم لي كلما نظرت إليها.

في هذه الفترة لم يكن أبي يعرف ماذا يفعل بخرائه .. كان يُخرج الأعاجيب البنية المزعجة، متفاوتة الأحجام من شرجه، ويقلبها بين يديه ليتفحصها باستغراب وغضب ثم يحاول التخلص منها في بيجامته، أو في أغطية الفراش والكراسي والكنبات، أو في ملاءة السرير ومسنده وحوافه، أو في الحوائط، أو يمدها إلى أي منا طالباً منه أن يأخذها ويجد تصريفاً لها.

كانت أمي تواجه صعوبة بالغة في الانتهاء من كتابة مسرحيتها (حفل الإرجاء)، ولم يكن ذلك راجعاً إلا لتهكم أختي من رغبة المؤلفة العجوز في الانتصار لوجهة نظر بطل المسرحية وهو قاص شاب يعتقد أن الكاتب العظيم لا يقدم أبداً تعريفاً واضحاً للحياة:

(الكتّاب العظام لا ينخدعون بهذه الخطيئة؛ فهم يبصرون تماماً الفخ المبهر الذي يطالبهم بهذا .. تلك الرفاهية الخبيثة جدير بها أولئك الذين ما زالوا يتفحصون الخط السيء واللغة الرديئة التي كُتبت بها الدعوة إلى الحفل .. الحياة أحقر من أن توصف، حتى أن هذه العبارة نفسها لا تنطوي مطلقاً على أي ضرورة أكثر من محاولة مفترضة للفوز برهان على السماجة القصوى).

في المقابل كانت أختي تنحاز لتصور البطل الآخر لمسرحية أمي وهو قاص كهل ينافس القاص الشاب على ثقوب طفلة في العاشرة، لم تحسم بعد هل تختار بينهما أم تجعل ثقوبها ممرات مشتركة يتصلان من خلالها .. كان القاص الكهل لا يجد تعارضاً بين تعريف الحياة وأن تكون كاتباً عظيماً:

(تراكم غامض من الآلام ذات الحتمية العمياء، غير المكلفة بجهد .. إن ما تظنه فهماً لتلك الآلام هو في حقيقته رضوخاً إجبارياً لعذابها الذي لا سبيل لتعطيله .. احترام لخلوده لا يمكن التفاوض معه .. إن قدرك هو البقاء في جوع لتصديق أنك تحارب عدواً يمكن التغلب عليه، أو على الأقل يمكن استيعاب دوافع هزيمتك أمامه .. كأنك تمتلك وجوداً تصونه في الخفاء إرادة عاقلة، مطلقة

القدرة، مثالية التدبير والنوايا، ومؤجلة الكشف حتى لو لم يكن العالم سوى نقيض دامغ لذلك التصور .. لقد عرفت منذ زمن طويل أنني مجرد معبر محترق، تمر من خلاله الصدف المتبلدة التي تدعي خضوعها لنظام يتخطى استمرارها المجرد، ولغاية تتجاوز الموت .. الموت نفسه ليس شيئاً حتى يمكنك أن تقاومه، أو تسترضي وحشيته، وتقنعه بخوض استعراض كاذب من عدم التكافؤ أمام الفراغ الأبدي .. الموت هو كل شيء بكافة ما تعنيه الدقة الإعجازية اللازمة للقهر، وذلك لا يعني أكثر من أنك ميت يتظاهر بالصراع ضد تدميره الذاتي، وترعاه حالة من التفاهة اللامبالية أشد وطأة مما قد ينتظره داخل قبر ما .. لقد كان للخيال فضل عظيم في رعاية اليقين بكوني مريضاً ـ مثل أي أحد ـ بوهم امتلاك الحدود التي يمكن توجيه ضربات ما من ورائها، لكن جسدي ليس إلا مكونات مضحكة من الغفلة .. فوضى أزلية معتمة لهزائم، وتوسلات، وآمال طائشة فاقدة الضمير والكرامة .. لاشك عندي في أن الكلمات هي وقود الحقارة ـ حيث لا يوجد ما يستحق الذكر ـ لذا فالكتابة لابد أن تكون توثيقاً ـ يجاهد للإفصاح عن كوابيسه في كل مناسبة ـ لفشل المحاولات المتكررة في الوصول إلى صمت نهائي، لا يثير الشفقة).

في إحدى الليالي كنت أشاهد التليفزيون فارداً ساقيّ فوق كنبة الأنتريه المجاورة للكرسي الذي أجلس عليه .. كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل، وكانت كفي التي شكلت حضناً أسطوانياً لقضيبي تحت الشورت والكلوت تصعد وتهبط سريعاً بدعم ذهني يحاول إكساب خيالات الشاشة الضبابية ملامح وألوان .. كان تركيزي في هذه الليلة محصوراً في إعطاء ما كنت أظن أنها امرأة عارية تنام تحت رجل ما جسد طفلة العاشرة في المسرحية كما وصفتها أمي .. فجأة فُتح باب حجرة المعيشة ودخل أبي .. تشتيت الانتباه في بداية الاستمناء خاصة لو كان ناجماً عن مفاجأة صادمة سيؤدي في الغالب إلى انهيار تدريجي سريع للانتصاب، أما عند حدوثه بعد مرور الوقت فالنتيجة ستكون قذفاً فورياً تعيساً .. وقف أبي أمامي، ونظر في عينيّ دون أن ينزل بصره نحو يدي التي كانت لاتزال تحت الشورت والكلوت بينما الدفقات الساخنة للمني تتابع بارتباك مقتضب حسرةً على استمناء مبتور، لم يُختم بنهاية لائقة .. أخرج أبي من جيب بيجامته كرة متوسطة الحجم من الخراء، ثم ألقاها أمامي على الأرض بنفاذ صبر كشيء فشل في تشغيله .. صوته المهموم كان خافتاً بوعي للحرص على عدم إيقاظ أمي النائمة داخل حجرتها في نهاية الصالة، وأختي النائمة داخل غرفة مجاورة تشارك حجرة المعيشة في نفس البلكونة: (شوف هتعمل فيها إيه) .. كانت هناك أيضاً جدية في نبرته الواطئة كأنه يخبرني بعدم امتلاكي لعذر يبرر عدم الاستخدام الجيد للخراء بعد أن تكفل بتحويله إلى كرة .. أخرجت كفي المبتلة، ودون اهتمام بتجفيفها قمت لأربت على كتف أبي محاولاً تخفيف ضيقه، ثم أجلسته على الكرسي .. أمسكت بكرة الخراء، وقربتها منه: (عارف تعمل فيها إيه .. تاكلها) .. حدّق في عينيّ بدهشة لم تفقده هدوءه دون أن يتكلم .. (هي مش بتاعتك .. خلاص .. كُلها) .. قربتها أكثر حتى كادت تلامس شفتيه فزادت حدة الاستغراب في نظرته، ومع ذلك كشف فمه عن ثغرة صغيرة .. (شاطر .. افتح بقك كمان) .. تحولت عيناه من وجهي إلى كرة الخراء للحظات قليلة كأنه يُخضعها لتشريح أخير ثم مد رأسه وقضم قطعة ضئيلة مزينة بسائلي المنوي، وبدأ يمضغها بطقم الأسنان الأمامي .. ابتسمت لأشجعه على قضم المزيد في حين ظهرت على ملامحه عدم الاستساغة لطعم الخراء، لكن تعوّده على أدوية رديئة الطعم جعلته يقضم قطعة أخرى، كأنه يعتبر أن ما يبتلعه الآن جرعة أخرى تشبه السوائل الكريهة التي تجبره أمي على

تناولها بالملعقة في مواعيد يومية ثابتة .. رأيت أن الاعتماد على ما علق بأصابعي من سائل منوي ليس كافياً لذا أدخلت يدي الأخرى تحت الشورت والكلوت لأجلب المزيد كي أغطي به الكرة البنية التي نقص حجمها .. ظل الضيق ينمو في ملامحه حتى تجمّدت على وضع الاستياء البالغ بعد خمس قضمات أنهى بها أبي وليمة الخراء والمني الصغيرة .. ربت على كتفيه ثم أنهضته وأمسكت بذراعه لأخرج به من حجرة المعيشة وأعبر به ظلام الصالة نحو غرفته التي تنام أمي في سريرها.

في اليوم التالي أنهت أمي مسرحيتها بعد نقاش سري مع أختي استغرق فترة استحمامهما معاً .. أسرعت إلى الشاشة والأزرار بجسد لا تزال قطرات وفيرة من ماء الدُش عالقة به كأنها توصلت إلى الحل السحري:

(الكتّاب العظام قد يحتاجون ـ كما ترى ـ لوصف الحياة حتى من حين لآخر عندما يأكل الغضب قلوبهم، وتذيب مرارة الضجر أرواحهم من قضاء الحفل ـ الذي دائماً ما ينتهي مبكراً ـ في خلق الرموز .. إنهم يحتاجون نفس الهدية الثمينة التي يمكن أن تعثر عليها فجأة عانس ما ظلت تراقب شقيقها الأصغر لليالٍ طويلة، سنة بعد الأخرى من فتحات شيش البلكونة وهو يستمني أمام شاشة مشوشة تماماً، تتحرك داخلها ظلال مطموسة، حتى تحقق حلمها ذات يوم ورأته يطعم أباها كرة من الخراء والمني).

نصوص متحركة

عندما خرج "الفشل في النوم مع السيدة نون""1" من الظلام فجأة جاءته رسالة من "قراءة الماضي""2" لتكشف له عن إحساسها بالتوتر الشديد من وجوده .. أخبرته بأنها لا تعرف لماذا تكتب له هذا: "ربما أردت أن ترى توتري فحسب" .. كان يعلم أنه ينتظرها ـ عند اكتمال عبورها إليه ـ ما هو أكثر قسوة من التوتر، أو أن شعلة القلق ستنطفيء بيُسرٍ متهكم، لن يُصدق .. لم تكن هذه الرسالة هي ما ينتظره "الفشل في النوم مع السيدة نون" من خروجه، أو ـ بصدق أكبر ـ لم تكن أجمل الأحلام التي تمنى أن يحققها وجوده .. لكن "الفشل في النوم مع السيدة نون" شعر باللذة أثناء قراءة الرسالة وكان هذا منطقي جداً .. ليس فقط لأنه اعتبرها هدية غير متوقعة، بل لأنها بدت كإشارة ثمينة على أن الأحلام ستتحقق بالفعل .. شعر كذلك بالضيق، وكان هذا منطقي أيضاً .. ليس فقط لأن توتر "قراءة الماضي" كان يؤلمه ـ ربما ظن للحظات أنه توتر مزيف سيكون رائعاً عدم الوقوع في فخه ـ بل لأنه كان متأكداً من أن أي محاولة من جانبه لتخفيف توترها ـ كتب بالفعل بعض الكلمات الكارثية كطمأنة كاذبة ثم مسحها كمن يفيق من نوبة هذيان ـ سواء نجحت هذه المحاولة أو أخفقت ستكون ـ فضلاً عن إلقاء الهدية غير المتوقعة في صندوق القمامة ـ بمثابة هدم للجسور التي ستمر فوقها الأحلام في طريقها إلى الواقع .. لم يكن أمامه سوى الصمت، وكان هذا هو التصرف الصحيح الوحيد، الذي يستحق أن يُزرع في مكان سري بداخله كوردة تفاخر نادرة يمكنه الرجوع إليها في أي وقت.

بعد شهور قليلة من هذه الرسالة رُدت الهدية غير المتوقعة إلى "قراءة الماضي" .. لم يكن "الفشل في النوم مع السيدة نون" هو من ردها بالطبع، وإنما كان "قراءات""3" .. أهدى "قراءات" إلى "قراءة الماضي": "أن تتناولك رواية أو هل تراني فعلاً بهذه الطريقة؟""4" .. ربما لا يزال "الفشل في النوم مع السيدة نون" يفكر: هل كانت هدية "قراءات" متعمدة أم أنها ذهبت إلى "قراءة الماضي" في هذا الوقت تحديداً عن طريق الصدفة ـ بالتأكيد يحب "الفشل في النوم مع السيدة نون" تصوّر أن تدخّل "قراءات" كان مقصوداً .. لكنه بدرجة أكبر كان ممتناً للسعادة التي منحتها "أن تتناولك رواية أو هل تراني فعلاً بهذه الطريقة؟" إلى "قراءة الماضي" إذ لم تكن لتلك السعادة علاقة بأحلامه التي لم تتحقق حتى الآن.

بعد الانتهاء من مائدة مستديرة عن "الرواية والفانتازيا" ـ يا لسخرية القدر ـ تقابل "الفشل في النوم مع السيدة نون" و"قراءات" .. مصافحة سريعة وابتسامة خاطفة ثم اختفاء فوري .. كانت تلك الحدود هي أقصى ما يمكن السماح به للواقع حتى لا تطغى الأجساد الحقيقية على الدعابة.

1- رواية لـ "ممدوح رزق" ـ دار الحضارة 2014

2- نص لـ "إيمان مرسال" من ديوان "جغرافيا بديلة" ـ دار شرقيات 2006

3- مدونة للمترجم "أحمد شافعي".

4- مقال لـ "ميشيل هونيفن" ـ ترجمة: "أحمد شافعي".

النافذة السرية

هل تأكدت الآن من أنني لم أكن أمزح؟ .. الشاب الذي قُتل اليوم، ووجدوا عضوه مقطوعاً ومحشوراً في مؤخرته؛ دمه في رقبتك أنت .. بالطبع تعرفه جيداً .. أليس هو القاريء الذي وصف كتاباتك بالفحش والبذاءة على "جودريدز" .. ما كان عليك أبداً أن تستهين برسالتي وتتجاهلها .. عليك قبل منتصف ليل اليوم أن تكتب في صفحتك على "فيسبوك" الآتي:

"كتاباتي تشبه حياتي تماماً .. تافهة وساذجة، وأكثر ما جعلها مثيرة للسخرية هو ادعاءاتي البلهاء بأنها ذات قيمة .. فشلت في الاستمتاع ككاتب؛ إذ أبقيت نفسي بعيداً بمنتهى الحماقة عن الأماكن التي كانت ستضمن لي أن أكون رمزاً أدبياً .. تعاملت مع ذكرياتي بأسوء طريقة ممكنة؛ فبدلاً من محاولة الوصول إلى الحقائق ومعرفة الأصول وراء كل مشهد في تاريخي العائلي قمت بتحويل قمم الجبال الجليدية إلى كرات ثلج، وظللت ألعب بهشاشتها مستخدماً الأكاذيب والأوهام .. فشلت في الاستمتاع كإنسان؛ إذ ضيّعت أربعين عاماً من عمري دون أن أمارس المتع العظيمة التي يؤديها أغلب الناس من حولي .. كنت دائماً أذكّر نفسي بضرورة التعوّد علي القيام بها، ولكنني استمررت في النسيان حتى انقضت بدونها سنوات كثيرة من حياتي لن أعيش مثلها .. نسيت مثلاً أن آكل وأشرب بصوت، وهذا يعني أنني لم أكن سوى آلة بلع وهضم، لم تعرف يوماً المذاق الحقيقي للطعام والشراب .. نسيت أن أمضغ وفمي فارغ ـ ياله من شعور رائع بالسكينة والثقة يجلبه ذلك الفعل خاصة لو كان مقترناً بالنظر إلى العالم بعينين ناعستين ومبتسمتين .. نسيت أن أُرخي جسمي، وأن أفرد بطني، وأن آخذ نفساً عميقاً في لحظات التوتر والفزع مثل الأفلام الأجنبية ـ أدركت أنه حل ناجح فعلاً ولكنني حرمت نفسي منه .. نسيت أن أفرك يدي وهي خالية تماماً كأنني أُخلصها من بقايا وليمة دسمة غير مرئية ـ لا يمكن وصف إلى أي مدى تسبب هذه الحركة راحة للأعصاب، وتمنح إحساساً بالاطمئنان والصلابة والامتلاء .. كم كنت غبياً ـ وبالتأكيد سأحافظ على هذه الفضيلة ـ لأنني لم أجعل من صنوف اللذة هذه نمطاً راسخاً لوجودي".

إذا لم تكتب هذه السطور قبل الموعد المحدد سوف أقتل ضحيتك الجديدة، وسيكون هذه المرة الناقد الأكاديمي الذي كتب عن روايتك في صفحته على "فيسبوك" بأنها مفككة، وتفتقد للبناء الحكائي المتماسك، وليس لها مغزى .. إذا أردت أن تُنهي حياة شخص آخر غداً، وأن يُقطع عضوه ويُحشر في مؤخرته فلا تكتب ما أمرتك به .. تذكر .. لن تستطيع أنت أو غيرك الوصول إليّ، ولن يتمكن أحد من إيقافي، وأنا متأكد أنه بمرور الوقت سيكون كل جزء منهم قد اختفى، وأن موتهم سيصبح لغزاً حتى بالنسبة لي.

درس الرعب

أحضرها (علاء الخيراوي) إلى المقهى بسيارته .. هو كاتب إسلامي ينشر مقالات كيتشية في الصحف، ويلقي أحياناً محاضرات بالدولار في البلدان العربية عن التسامح بين المذاهب الدينية .. كان اسمها (عديلة)، وهي ابنة سادسة على حافة العنوسة لأسرة فقيرة بلا أب، ألحقها (علاء) بالعمل الصحفي مقابل مص قضيبه أثناء القيادة على الطرق السريعة حول المدينة .. ضغطت على يدي مبتسمة وهي تصافحني بوجه طويل، نحيف ببياض باهت، وعينين واسعتين، وفم عريض تبرز أسنانه الأمامية .. لم أعثر في ذاكرتي على ممثلة بورنو تشبه ملامحها، وإن بدا هذا الاكتشاف في طريقه للحدوث .. كنت قد أعطيت النساء اللاتي أتمنى أجسادهن في حياتي أسماء نجمات البورنو بحسب قوة التشابه بين الوجوه .. الجدير بالانتباه أن هذا التشابه كان مقترناً دائماً بمماثلة، وأحياناً بمطابقة تامة بين امتلاءات أجسامهن .. كأن الملامح المتقاربة ـ كحتمية سكسية ـ ينبغي أن تُنشىء انسجاماً بين الأجساد التي تنتمي إليها، أو ربما تفرض الأجساد المتناظرة ـ وهي تبني تاريخها الجنسي ـ ثباتاً لازمنياً للوجوه .. على هذا كان لدى زوجتي شقيقتان؛ الكبرى (آفا لورين)، والصغرى (باتريشيا رومبرج) .. كان جاري في البيت المقابل متزوجاً من (جوي كارين)، أما جاري الآخر في الشقة المواجهة لشقتي فكان متزوجاً من (كاري مون)، وبالصدفة ـ التي ربما كانت امتدادا أعمق للتشابه ـ كان لديهما ابنة تمتلك نفس ملامح وجسم إحدى الموديلات التي أخذت دور ابنة (كاري مون) في فيلم لها، وشاركتها التعبّد لقضيب أحد الرجال .. لو قلت الآن أن وجه هذا الرجل في الفيلم وجسده يشبهان إلى حد كبير وجه وجسد زوج ابنة جاري؛ هل سيعد ذلك مبالغة لا يمكن تصديقها؟ .. ربما، ولكن أقسم بحياة طفلتي ـ التي مازالت تشبه أمي حتى الآن ـ أن هذه هي الحقيقة حتى لو كان قبولها يعني تحوّل هذا التناسخ العام إلى نوع من الغرابة المخيفة .. أن تكون هذه هي حكمة الحياة وحسب، التي ستفضي بعد الموت إلى لاشيء.

ذهب (علاء) إلى الحمام غامزاً لي من وراء ظهر (عديلة) وهي تجلس وتتابع نظراتي التي تتفحص تفاصيلها المنتفخة على نحو مقبول من وراء بلوزة وجيبة ضيقتين.

قالت بصوت يبدو كأنما استعارته من أمها المريضة بالكبد: كنت أريد أن أراك منذ زمن.

ـ ليس أكثر مني.

ـ أعتذر لأنني السبب في التأخير عن الموعد، كان على أستاذ (علاء) أن ينتظرني حتى أنتهي من صلاة العشاء في المسجد.

ـ هل تصلين في الجامع؟

ـ أنا حريصة على الصلاة دائماً في (الجمعية الشرعية).

ـ ولماذا هذا المسجد بالذات؟

ـ ثوابه أكبر لأن الإمام يستغرق في الصلاة وقتاً طويلاً.

ـ ليس عندي شك في أنك تفضلين الرجل الذي يستغرق وقتاً طويلاً.

لم تمنحني عيناها الثقة في أنها ممهدة من أسفل، لكن (علاء) كان يصدّق قسمها بأن الحائط الصغير بين فخذيها لم يُهدم بعد .. على أي حال ـ ولحسن الحظ ـ كانت نفس العينين المراوغتين تمرران انطباعاً لا بأس في قوته بأنها سترحب باستقبال صرخاتي المدببة من الباب الخلفي إذا توفرت الفرصة .. كانت قد تركت العباءة السمراء التي ترتديها في الجامع داخل السيارة .. كرجل وقور، يكبرني بأكثر من عشرين عاماً، وككاتب إسلامي، وكمحاضر عن التسامح المذهبي رفض (علاء) أن أجلس مع (عديلة) في الكنبة الخلفية، ولكنه ظل جالساً في السيارة على بُعد خطوات قليلة وأنا أدعك مؤخرتها على كنبة أخرى في شارع فارغ، نصف مضاء .. فكرت أثناء مضغ طراواتها في أن (عديلة) اسم لامرأة ينبغي أن تكون ميتة منذ زمن بعيد، ولم يعد يتذكرها أحد .. قوة انتصابي كانت على وشك أن تدفعني لتعرية ثدييها أمام العابرين المحتملين، وكانت ملامحها المسترخية، والممتنة تحت المكياج الخفيف تقول لي: (إفعل ذلك الآن) لولا (كلاكس) حارس اللذة العجوز، وإشارته من وراء الزجاج بعدم التمادي نحو الفضيحة .. أنزلناها قرب منزلها ـ القريب من (الجمعية الشرعية) ـ ثم تمنيت أن أعض (علاء) في خده، وأنا أقبّله بعد أن أوصلني إلى بيتي.

كنت أكتب في تلك الأيام قصة قصيرة عن شخص يأتي السماسرة مع الزبائن إلى بيته حسب الموعد المتفق عليه في الخامسة مساءً .. يكون وحده في هذا الوقت حيث يبكي غالباً أو يرقص مع الموتى أو يغني بعينيه للغيوم البعيدة التي مازالت لا تشبه غيوم الثمانينيات .. يقود خطواتهم لمعاينة الحجرات مراقباً بقناع من البراءة عيونهم وهي تتفحص أسرار زوجته التي وزعها في أماكن واضحة قبل مجيئهم: الملابس الداخلية وقمصان النوم والمناشف الصغيرة التي تستعملها بعد المضاجعة وقضاء الحاجة .. يستمتع بالهياج المرتبك في نظراتهم التي يحاولون إبعادها بتردد شاق .. يجلسون دائماً في الصالة بعد كل جولة للتفاوض حول الثمن .. يتحدث بعفوية صلبة عن مزايا البيت، ويسخر من ضعف الأرقام التي يعرضونها كأنه غير منتبه للاستعراض الشبقي الذي فاجأهم، ومازال لمعانه الجائع يومض في عيونهم المبتسمة .. يستلقي بعد رحيلهم فوق السرير وسط المخبوءات المكشوفة ليستمني، مستعيداً كافة التفاصيل الدقيقة للحفل الجماعي الذي انتهى منذ لحظات .. يعيد الأسرار إلى أماكنها قبل أن تعود زوجته ثم يجلس أمام الإنترنت باحثاً عن رقم تليفون سمسار آخر كي يطلب منه إيجاد مشترين للبيت الذي لا يفكر مطلقاً في بيعه.

بعد أسبوع اتصلت (عديلة) بي، وطلبت أن تُجري معي حواراً للجريدة التي تعمل بها .. قابلتها في نفس المقهى، وسألتني أسئلة تافهة عن الكتابة أجبرتني على إجابات كاذبة للسخرية منها ومن الجريدة ومن قرائها .. في نهاية الحوار سألتني:

ـ ماذا كنت تتمنى أن تكون، لو لم تكن كاتباً؟

ـ جامع أثداء.

ـ كيف؟

ـ لا يروقني أن تُدفن الأثداء الجميلة مع صاحباتها من النساء الميتات .. كنت أتمنى أن تكون لي هذه المهنة: أن أتوصل إلى طريقة للاحتفاظ بهذه الأثداء على حالها، ثم أمتلك متحفاً يضم حصيلتي الإعجازية، ويتاح للآخرين دخوله والاستمتاع بمحتوياته وفقاً لشروطي الخاصة.

ـ لقد حاولت الانتحار من قبل، وأشعر أنني سأكرر هذه المحاولة قريباً.

وضعت الأوراق والقلم في حقيبتها ثم نهضت وغادرت المقهى دون أن تنتظر رداً .. كان هذا مريحاً لأنني لم أكن أعرف الرد الصحيح .. لم أكن راغباً في الإجابة على هذا السؤال الذي يدعي أنه ليس استفهاماً.

آخر هذا المساء فكرت في أن عينيّ ربما تعيدان خلق البشر كما يحلم بهم موقع (Xhamster)، أي أنهما تصححان العالم بشكل تلقائي .. قبل أن أنام جاءتني رسالة على (الواتس اب) من (عديلة) .. كانت صورة لثدييها العاريين فقط.

ربما سأوقظ زوجتي ذات ليلة .. أخبرها بأنني أشعر بألم في الإصبع الأوسط ليدي اليمنى، وأنني سأموت الليلة بسبب هذا .. يمكن لأي رجل أن يوقظ زوجته في الليل، ويخبرها بأنه يشعر بألم في صدره، حيث لن تمر تلك الليلة إلا وينتقل إلى المستشفى ليعالج من أزمة قلبية، ثم يعيش بعد هذه اللحظة عمراً طويلاً جداً .. لكنني عندما أوقظ زوجتي في الليل، بسبب الألم الذي أشعر به في الإصبع الأوسط ليدي اليمنى، سوف أموت بالفعل في تلك الليلة.

xvideos.com

كان عمري سبعة عشر عاماً حينما اشتريت هذه التابلوهات الصغيرة .. أتذكر جيداً شتاء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى معرض السلع المعمرة بعد تفاوض طويل مع أمي حول ضرورة تزيين حائط الصالة الواسع .. لم تكن لديها مشكلة في أن يبقى خالياً، مكتفياً بنقوشه الحمراء المملة، التي كنت أراها مجرد لطشات مستهترة، لا تعطي انطباعاً سوى بالخيال البائس لمن اختاروها .. من بين عشرات التابلوهات اخترت الثلاث التي كنت أعرف أنني سأتسلل خارج البيت دون أن يشعر بي أحد كلما نظرت إليها.

التابلوه الأول كان لبنت جميلة تجلس حافية على مقعد دائري بلا مسند فوق مساحة عشبية ضئيلة، وترسم على اللوحة البيضاء لعلبة الرسم المفتوحة فوق فخذيها تكويناً يبدو غير محسوم .. لكن بوجود ولد صغير يقف حافياً هو الآخر وراءها ليشاهد ما ترسمه دون أن تشعر كنت أعرف أنها ترسمه هو .. كان الولد والبنت يبدوان كأنهما من أبناء الغجر، لذا كان باستطاعتي أن أرى كل المشاهد التي لم تظهر في اللوحة .. أم البنت خارج المساحة العشبية تقرأ الودع للعابرين .. أبو الولد يجلس فوق عتبة كوخ متهالك، يعزف على الجيتار ويغني أغنية قديمة، سيختنق بالدموع عند كلمات معينة منها .. كان بمقدوري أن أرى الولد وهو يُطعم حصانه ويربت على ظهره قبل أن ينتبه إلى البنت التي ترسم ليترك الحصان ويتسلل من ورائها كي ينظر إلى لوحتها دون أن تدرك وجوده.

التابلوه الثاني كان لفتاة شقراء ذات عينين زرقاوين، ترتدي جاكت قصير من الفرو منسوج من تلاحم مساحات طائشة من الأحمر والأزرق والأصفر كأنها رُقع مغوية، غير متطابقة، تناسب التوهج الناري لبنطلونها الجينز الأحمر الضيق، والعُقد الطويل الذي يتدلى من رقبتها وتحمل لآلئه نفس ألوان الجاكت .. كانت الفتاة تمرر العقد بين إصبعين مرفوعين بالقرب من شفتيها اللتين تعطيان قبلة في الهواء .. رأيت هذه القبلة كامتداد منطقي للوضع الماكر المثبت لخطوتها .. كان الليل خلفها يؤكد ظلامه بفضل الأضواء الساطعة الجانبية التي كُتبت بها لافتة " luna park" .. لافتة كبيرة، معلقة وسط تشكيل منتظم أفقياً من المصابيح البرّاقة تعلوه دوائر متداخلة من اللمبات الباذخة بالنور الأبيض حيث تتمركز لمبة واحدة في قلب هذا التداخل فبدت الدوائر كأنها ترابط ناصع لفصوص جوهرة من الماس الأبيض فوق نسيج المساء الحالك .. لكن ما جعل الصورة درامية حقاً هو السيارة "فيات 132" الحمراء التي تسير وراء البنت دون أن تُظهر زاوية المشهد أي ملامح لسائقها .. هذه السيارة بغموض انعزالها في ذلك المكان وهي تتحرك داخل الليل الذي يطغى سواده على الخلفية دون رفقة من عربات أخرى .. بانعكاس الأضواء اللامعة فوق حضورها المبهم، المتناغم مع خبث الظلام، والمغلق على قائد خفي .. برهبة اللون الأحمر لسطحها المصقول، المريب بتربصه الضبابي، الذي أضاءت نصفه الأمامي أنوار اللافتة فيما لايزال نصفه الخلفي داخل عتمة خفيفة كأنها الحواف الضعيفة للظلام .. هذه العلامات جعلتني أرى الصورة تتجاوز حواجز التفسير البديهية المتوقعة، التي تبقيها كمجرد تمثيل لفتاة جميلة، لعوب، تتسكع بمفردها، أو في طريقها لدخول "الملاهي"، أو أن معجباً ما يتتبعها بسيارته الـ "فيات 132" الحمراء .. رأيت حكاية بوليسية على وشك الحدوث .. مغامرة تستحق أن توجد استجابة لحضور هذه الإشارات .. كأنه سيتبين أن سائق السيارة هو

"آلان ديلون" أو "جان بول بلمندو"، وأن هذا الوقت سيتحول إلى ليل فرنسي يسكر بالمعاطف الثقيلة والقبعات وكبائن التليفون الزجاجية والتلصص من وراء الصحف المفتوحة والنظارات ذات الأضلاع السميكة وغرف الفنادق والمطاردات وإطلاق الرصاص والقبلات التي تتدفق الموسيقى من رعشاتها .. كان خيالي يحرص تماماً على ألا يتعرض أحد لأذى داخل تلك الحكاية.

التابلوه الثالث كان لطفلين يظهران كأبناء مزارعين من الريف الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر .. الطفلة تجلس فوق كرسي كبير مرتدية فستان أبيض كعروس صغيرة، والطفل يقف وراءها رافعاً قبعته بيده اليسرى بينما باقة ورد متعددة الألوان تستقر في يده اليمنى .. بدا الطفلان كأنهما يقضيان كل نهار في اللعب داخل الحقول التي رسمها "فان جوخ"، وأن هذه اللوحة كانت تجهيزاً لمشهد قادم سيحدث بعد سنوات .. لم أعرف حتى الآن هل سيكون هذا المشهد سبباً في سعادة الحقول، أم أنه سيكون مصدراً لتعاستها حتى لو حصلت على أطفال جدد سيلعبون في نهاراتها.

بعد موت أخي وجدتي وأمي وأبي وأخي الآخر ـ بالترتيب ـ انتبهت إلى وجود هذه التابلوهات على الحائط .. شعرت أن هناك خطأً في بقائهم هناك وأن هذا الاكتشاف جاء متأخراً ..
وضعتهم داخل صندوق كارتوني فوق دولاب أبي الذي لا يزال مغلقاً على بعض ملابسه القديمة وصوره بالمايوه على البحر بالابيض والاسود حينما كان شاباً .. تزوجت منذ عشر سنوات أي منذ اقترابي من الخمسين، ثم عاد زوجي فوراً إلى زوجته الأولى وأبنائه في مدينة أخرى ليعيش معهم، بعد أن سرق كل ما ادخرته من مال وحلى ذهبية، ولم أره طيلة هذه الأعوام سوى مرات نادرة .. لو أنني أحكي هذه التفاصيل منذ سنتين أو ثلاثة كان الأمر سيبدو كما لو أنني أتقيأ طوفانً متناثراً من الغيوم الميتة، لكنني ـ كما ترى ـ أتحدث كامرأة توصلت لتفاهم ما مع صوت دقات الساعة داخل السكون .. امرأة أصبحت تؤمن أنها لم يكن بوسعها الحصول على ذاكرة بديلة لو عاشت حياة مختلفة .. لدي على الأقل وقت طويل ربما لا تمتلكه واحدة أخرى لنشر الاقتباسات من الكتب على صفحتي بـ "فيسبوك" .. عندي مكتبة كبيرة تساعدني دائماً في الحصول على "لايكات" وتعليقات إعجاب كثيرة .. إنني لو حركت الكاميرا قليلاً إلى اليسار ـ هكذا ـ ستجد فوق الطاولة الصغيرة التي ورائي: "كليلة ودمنة"، و"الأغاني للأصفهاني"، و"أجمل ما كتب أمير الشعراء أحمد شوقي"، و"رباعيات صلاح جاهين"، و"مجمع الأمثال للميداني"، و"أحلى عشرين قصيدة حب من الشعر العربي لفاروق شوشة"، و"رباعيات الخيام" .. هذه مجرد عينة من ذخيرة لم أعد أستطيع الاستغناء عنها مطلقاً؛ فبالرغم من أنني اشتريت تلك الكتب منذ سنوات طويلة إلا أنني لم أبدأ في قراءتها إلا هذه الأيام بعدما أدركت مدى أهميتها .. إنها وسيلة مضمونة للربح .. في كل مرة أنشر اقتباساً أشعر بأن لوجودي ضرورة ما في حياة الآخرين .. أنهم يحبونني حتى ولو عند حد معين، ولديهم دائماً الرغبة في التعبير عن رضاهم عني لأن هناك شيئاً أفعله يشغل حيزاً من التأثير اليومي في دنياهم مهما كانت درجة خفوته .. إنني في الواقع أدين بهذه السعادة لـ "مكتبة الأسرة" لأنها أتاحت تلك الكنوز للجميع بأسعار زهيدة جداً .. أخي الصغير هو من ذكرني بالتابلوهات .. كان يحتاجها للرواية التي يكتبها عن طفولته .. نعم .. أخي كاتب أصدر مجموعات قصصية وروايات ويكتب مقالات نقدية في "أخبار الأدب" .. أنا فخورة به كثيراً .. لا يمكنني أن أنسى

القصة الجميلة التي كتبها في بداياته .. كانت عن بنت تأخرت في الزواج، وتبكي كلما أقيم حفل زفاف بالقرب من بيتها، لكنها كانت دائماً مع دقات الطبول وتراقص الأضواء تمرر سواد الصبغة فوق شعيراتها البيضاء وتنظر إلى ملامحها في المرآة من جديد وتبتسم .. أنت لست في حاجة بالطبع لأن أخبرك بأن هذه البنت كانت أنا.

صعد أخي الصغير فوق الدولاب وأخذ التابلوهات من الصندوق الكارتوني، وقبل أن يخرج بها ألقيت نظرة عليها .. نظرة لم تسترجع أي ماضٍ، ولم تشعر بشيء على الإطلاق .. كان البرود لحظتها يعد عاطفة متقدة مقارنة بإحساسي تجاه التابلوهات .. كأنني اكتشفت عالماً أبعد من اللامبالاة لم يجعلني فقط غير مهتمة بتنظيفها من الغبار قبل وضعها في كيس كبير، بل خلق أيضاً بداخلي أمنية ـ لم أكشف عنها بالطبع ـ أن يترك أخي الصغير الغبار عالقاً بها حتى بعد رجوعه إلى بيته.

شعر صدرك يعجبني كثيراً .. بالمناسبة .. أنا أثق بك، وأعرف أن ما تراه وتسمعه الآن سيظل سراً بيننا.

الجرائم الحقيقية

تواصل معي على فيسبوك محرر صحفي يعمل في مطبوعة ثقافية عربية راغبًا في إجراء حوار عن مشروع "نقد استجابة القارئ العربي" الذي أنشر مقالاته في باب أسبوعي على موقع "الكتابة" الثقافي. كعادتي طلبت منه قائمة بجميع الأسئلة حتى أرسل له إجاباتها دفعة واحدة في الموعد المحدد، على أن أقوم بالرد على أي استفهام أو استفسار جديد يطرأ في ذهن المحرر بناءًا على تلك الإجابات. بعد أسبوعين تقريبًا تم نشر الحوار، وكان كالتالي:

الناقد ممدوح رزق: القارئ ليس إلهاً، وجودريدز قوّاد كتب.

في مطلع العام الحالي بدأ الناقد ممدوح رزق في كتابة سلسلة مقالات أسبوعية لموقع الكتابة الثقافي تحت عنوان (نقد استجابة القارئ العربي). حول هذا المشروع كان لنا معه هذا الحوار:

ـ لا تخلو مقالات (نقد استجابة القارئ العربي) من السخرية، إلى من توجهها تحديداً؟

هي سخرية من إيمان القارئ بأن فكرته الشخصية عن العمل الأدبي، وعن الكتابة بشكل عام بمثابة حقيقة مطلقة، وما قد يتبع هذا الإيمان من ممارسات عقابية تجاه الكاتب، ومحاولات فرض الوصاية على القرّاء الذين لديهم أفكار مختلفة، وكذلك من السلطة المعرفية التي تستثمر هذه الألوهة المزعومة للقارئ.

ـ ما هى ممارسات عقاب الكاتب التي تقصدها؟

في سلسلة المقالات تناولتها بشكل تفصيلي، ويندرج في إطارها الريفيوهات العدائية التي تتعمّد إهانة العمل الأدبي وكاتبه تحت دوافع أخلاقية أو دينية مثلًا، والتحذير من قراءة هذا العمل، والهجوم على المقاربات النقدية التي تحتفي به، وحتى التعقّب "القانوني"، وبالطبع تتفاوت مستويات اللغة أو حدة "البلاغة" المستخدمة في هذا العقاب.

ـ خصصت جزءاً كبيراً من (نقد استجابة القارئ العربي) لموقع جودريدز، كيف تعرض رؤيتك له الآن؟

موقع جودريدز ـ وما يشبهه ـ بالنسبة لي مجرد قوّاد كتب، يقوم على آليات انتهازية سخيفة، تستغل رغبة القارئ في تجاوز فرديته أو فضائه الخاص إلى المساهمة الأبوية في تحديد يقين عام عن الكتاب حتى لو لم يسبق له الاطلاع عليه أصلا، أو بحسب كم الحسابات المغشوشة التي يمتلكها على الموقع؛ ولهذا فمن العادي جدًا أن يعطي أحدهم لكتابك نجمة واحدة لأنك قمت بحظره على فيسبوك مثلًا، أو لأنك لم تكتب مقالًا عن الرواية التي أرسلها إليك، أو لأنك تهكمت عليه في أحد نصوصك، أو لمجرد الغيرة؛ لذا فتقييم الأعمال الأدبية بالنجوم مسألة تزييفية سمجة، وجديرة بالازدراء. الكاتب لا يقدم وجبات طعام، أو خدمة فندقية، ولا يكتب إرضاءًا للجميع أو لأحد بعينه كي يكون للآخرين الحق في التعامل مع كتاباته بمنطق النجاح والفشل.

ـ ما هي علاقتك ككاتب بموقع جودريدز، وهل مازلت تستخدمه؟

تحدثت في أحد مقالات "نقد استجابة القارئ العربي" عن علاقتي بجودريدز، وذكرت أنني أضفت كتبي إلى الموقع عام 2009 ، وكنت أنشر أحيانًا قرءاتي النقدية به، ولم يكن الغرض كذلك ـ كما سبق وكتبت ـ هو قراءة التدوينات حول الكتب فحسب بل تأويل هذه التدوينات أيضًا، مراقبة سلوكها اللغوي، النطاقات التي تتحرك في حدودها، والمقارنة بينها. كان الغرض هو اقتفاء أثر ما تتبناه، وما تهمله، وتفسير الدوافع وراء ذلك. منذ فترة طويلة لم أعد أتصفح هذا الموقع إلا نادرًا، ولا يزال القراء يضيفون كتبي إليه، وأحيانًا لا أعرف بذلك إلا بعد مدة كبيرة.

ـ هل تهتم بمراجعات القراء عن أعمالك؟

لا أهتم سوى بالآراء والمقاربات التي تحاول اكتشاف وتشريح نصوصي، وتعيد خلقها لا أن تحاكمها؛ فمن السذاجة والعبث أن تنظر بجدية لمن يحاسبك على تجارب لا يعرف عنها شيئًا، أو على مخالفتك لما يظنه بتعنّت طفولي قواعد مقدسة للكتابة، أو على ما يعتبره ـ بمنتهى النطاعة العمياء ـ تعاملًا خاطئًا من جانبك مع آلامك الشخصية. "نقد استجابة القارئ العربي" يفكك هذه الأساطير المرتبطة بالتلقي، ويكشف مدى هزليتها وبؤسها، وهو في ذلك يطمح لكتابة تاريخ آخر للجماليات الأدبية والنقدية يجرّدها من الأوهام التحريمية المعتادة.

ـ ماذا تطلق إذن على سبب عدم تجاوب القارئ مع كتاب معين؟

أطلق عليه تباينًا في طبيعة الرؤى .. اختلاف الموقف الوجودي والجمالي من العالم .. عدم التوافق في الإدراك أو التفسير أو الاعتقاد .. الانفصال عن تاريخ مغاير لا يتحمّل أحد مسؤوليته .. غياب التفاهم أو الانسجام بين وعي بالحياة والموت ووعي آخر لا ذنب لأحد فيه .. لهذا فإنني لا أحترم القارئ أو الناقد المتزمت الذي ينصّب نفسه قاضيًا على نص لا يمتلك أدنى فكرة عن الماضي الذي أنتجه، وبدلًا من أن يُرجع عدم التوافق بينه وبين النص إلى انتفاء المساحات المشتركة أو الجسور التحريضية، فإنه يردّه بالسهولة العفوية السطحية والمتعالية إلى ما يُسميه "أخطاء الكاتب"، كأن هذا القارئ أو الناقد يمثل الصواب الأدبي في ذاته، وعلى جميع الكتّاب أن يعملوا لإرضاء ذائقته هو تحديدًا ومن يشابهه.

ـ ماذا عن كتابتك النقدية؟ هل لديك معيار مختلف لقراءة النصوص؟

في عملي النقدي لا أعيّن نفسي حاكمًا على كاتب أو مقيّما لجهده أو مصححًا لنصوصه أو أيًا من تلك الاعتداءات الوضيعة التي يحتاجها الكثيرون لإخفاء عجزهم، وإشباع نقصهم. إما أن يكون في العمل الأدبي ما يحفزني على تحليله، ويغريني باللعب التخييلي مع رموزه وعلاقاته، واقتياده إلى مناطق جدلية أبعد مما قد تقترحه التأويلات المباشرة، أو لا تنشأ هذه الصلة النفسية، أو يومض هذا الاستفزاز الذهني، وحينئذ لا أكتب عنه فحسب، وربما مؤقتًا وليس نهائيًا .. هكذا يتم الأمر بالنسبة لي ببساطة وفي صمت، دون استغلال لما يُطلق عليه "نقاط الضعف في العمل" كي أصدح بحكمتي الأدبية التي يجب أن يراعيها الجميع.

ـ تحدثت أيضاً في (نقد استجابة القارئ العربي) عن تدوينات القراءة. كيف أثبتت هذه التدوينات عدم وجود فرق بين القراء الذين يكتبون المراجعات والنقاد الأكاديميين حتى الذين لديهم مكانة معروفة في الحياة الثقافية العربية؟

لا يقتصر الأمر على الأكاديميين تحديدًا .. نعم هم نقاد لا فرق بينهم وبين القراء الذين لا يقدمون أنفسهم كنقاد .. أجيال متعاقبة عاشت بمعنى الكلمة عالة على النقد الأدبي بفضل هذه السلطة: "فشل الكاتب في كذا"، "أخفق الكاتب في كذا"، "لم ينجح الكاتب في كذا"، "هذا عمل مبتذل"، "هذه كتابة رديئة"، "هذا كاتب يسعى للشهرة"، "نحن في فوضى أدبية تسمح لكل من هب ودب بالكتابة" ... إلخ، وعلى جانب آخر ـ وهذا منطقي ـ تجدهم بارعين تمامًا في كتابة ملخصات للأعمال الأدبية، وفي إخضاع النصوص للدلالات المستهلكة، وتدوير المعاني التقليدية المغلفة أحيانًا بالتحذيرات الرقابية .. الناقد بالنسبة لي هو الذي يكشف العمل الأدبي، أو الفيلم السينمائي لكاتبه أو مخرجه مثلما يكشفه للقارئ أو المتفرج تمامًا. يضيء احتمالات ملهمة، ولا يتوقف أمام التأويل السهل والمتداول للرموز بل يفكك السياقات الجاهزة، ويضع علاماتها الواضحة في نطاقات استفهامية، خالقًا فيما بينها علاقات مبتكرة ضمن "كتابة موازية" تشتبك حقًا مع النص.

ـ ما سبب توقفك عن كتابة الباب، وهل ستعود إليه قريباً؟

توقفت عن كتابته بسبب انشغالي بنوفيلا "جرثومة بو" التي كان يستدعي إنهاؤها قدرًا كبيرًا من التفرغ بالإضافة لبعض الأعمال الأخرى، وسأعود لكتابة الباب خلال الشهر القادم.

* * *

بعد نشر الحوار بساعات قليلة نشر أحد النقاد الأكاديميين المعروفين منشورًا هجوميًا يصفني فيه ـ دون ذكر اسمي، ولكن بإشارة ضمنية إلى الحوار ـ بالغرور والتعالي وعدم احترام الآخرين .. كان هذا الناقد ـ فضلًا عن رجعيته النقدية ـ معروفًا أيضًا بهوسه بتصحيح الأخطاء اللغوية في النصوص التي ينشرها الكتّاب والشعراء في صفحته على فيسبوك، إلى جانب كتابة البوستات العدائية ضد "العابثين بقواعد الكتابة الأدبية" كما اعتاد أن يطلق عليهم دائمًا .. بالصدفة، وصلني أثناء قراءة المنشور إشعارًا من إحدى الصفحات الإخبارية عن العثور على جثة طفلة:

"تم العثور على جثة الطفلة حبيبة أحمد عبد الحليم - المختفية من قرية ديرب بقطارس مقتولة في شوال ملقى في الأراضي الزراعية بالتحديد بترعه مجاورة لأحد الأراضي الزراعيه، حيث تبين من بداية التحقيق بأن القاتل زوج أخت القتيله المدعوا/ ابراهيم وشقيقه المدعوا / الدسوقي بعد خطفها وتم اغتصابها والتخلص منها بعد ذلك بأحد الترع المتواجدة بالاراضي الزراعيه".

تحت الخبر المقترن بصورة الطفلة المبتسمة في فستانها الأبيض، والذي تتعاقب على وحشيته الوجوه التعبيرية للحزن والذهول والغضب، وعبارات الدعاء المصدومة، المطالبة بالقصاص العاجل؛ قمت بعمل "منشن" لهذا الناقد، دون كتابة أي شيء آخر .. بعد دقائق كتب تعليقًا يترحّم فيه على الطفلة مختومًا بسؤال مقتضب لي، تثقله الحدة البديهية عن السبب الذي جعلني أقوم بعمل "منشن" له تحت هذا الخبر المؤلم .. كتبت ردًا له بأنني كنت أنتظر منه أن يقوم كالعادة بتصحيح الأخطاء اللغوية والأسلوبية في هذا الخبر مثلما يفعل مع نصوص الآخرين .. علّق قائلًا بأنه من السخافة البالغة أن أطالبه بتصحيح اللغة في ظرفٍ كهذا، ثم أنهى الرد بما يشبه الصراخ: هذا ليس مجرد نص .. هذه جريمة حقيقية بشعة.

كانت العبارتان الأخيرتان المتوقعتان هما ما أردت الحصول عليه .. تركت فقط إيموشن الابتسامة العريضة كتعليق أخير لي ثم أغلقت الصفحة عائدًا لمقال جديد أكتب فيه عن رواية لا تقف وراءها جرائم حقيقية!.

المحتويات

ـ خطوات

ـ قطع الزجاج الضئيلة

ـ شيء غامض يضيء في الأفق

ـ شباب رواية

ـ لأن عينيه مغلقتان طوال الوقت

ـ هل تبحث عن أحد؟

ـ تفسير العتمة

ـ أسوأ طريقة لإنهاء الحياة

ـ الأسماك الميتة

ـ الشخص الذي ينظر إليك

ـ تقتلني بنعومة

ـ امتداد السماء فوق شارع البحر

ـ النفق

ـ ما لم يسجّله دكتافون أجاثا كريستي

ـ الذكرى السرية لبول شيلدون وإيني ويكلس

ـ قصص طفولية تمنح السعادة

ـ قصتها القصيرة

ـ الدوران

ـ كأنه مكان للسير

ـ لغة جنائزية

ـ مسافات صغيرة

ـ الساحر

ـ تحضير الأرواح

- البرد

- قالي كلام

- خارج الذاكرة

- فلاش باك لجناحين ناعمين

- إنهاء الدعابة

- الأريكة القديمة

- بطوط

- فرضية المرح

- كأجنحة مروحة

- التلصص

- النظر إلى المسيح

- وأنا أتحدث إليك

- السَفَر

- إغماض العينين

- حفل الإرجاء

- نصوص متحركة

- النافذة السرية

- درس الرعب

- xvideos.com

- الجرائم الحقيقية

ممدوح رزق

كاتب وناقد مصري. صدرت له العديد من المجموعات القصصية والشعرية والروايات والمسرحيات والكتب النقدية كما كتب سيناريوهات لعدة أفلام قصيرة. حصل على جوائز عديدة في القصة القصيرة والشعر والنقد الأدبي. ترجمت نصوصه إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. أشرف على ورشتي "أركادا"، و"موتيڤيشن" للقصة القصيرة. شارك في تحكيم العديد من جوائز القصة القصيرة. يكتب مقالاته النقدية في جريدتي "أخبار الأدب" و"الحياة" اللندنية، ومجلة "عالم الكتاب"، وموقع الكتابة الثقافي.